



جامعة القدس
كلية الدراسات العليا

لغة الخطاب الإعلامي الإسرائيلي
"عملية السور الواقى نموذجاً"

قدمت لاستكمال درجة الماجستير في معهد
الدراسات الإقليمية - دراسات إسرائيلية

إعداد:

أحمد رفيق عوض

إشراف:

أ. د. عزيز حيدر

فلسطين

2006

مقدمة

كانت أسباب اختياري لموضوع هذا البحث ما ذكرته في الاقتراح الذي قدمته للأستاذ الدكتور عزيز حيدر وتمثلت فيما يلي:

أولاً: التعرف على مزايا وخصائص الخطاب الإعلامي الصهيوني بنيوياً وفكرياً وعقائدياً، من خلال التعرف على آليات عمل هذا الخطاب وكيفياته الفنية.

ثانياً: تعريف الوعي العربي بهذا الخطاب كظاهرة ثقافية استعمارية، ووضعه في سياقه الكولونيالي التاريخي كجزء من عملية تنمية ثقافية فلسطينية تحررية.

أما هدف هذا البحث فقد تمثل في فهم منطلقات هذا الخطاب وأهدافه وأولوياته وكيفية التطبيق وآليات التنفيذ، باعتبار أن الصحافة هي التي تعكس الوعي الجمعي وتقدم المقولات الأخيرة لكل جماعة، بالإضافة إلى هذا، كان هدف هذا البحث أيضاً هو محاولة فهم المدلولات الثقافية والعقائدية ومن ثم الاستعمارية من خلال لغة الخطاب المستخدمة في مستوياتها المختلفة، العلنية والموارية، الذكية والفجة، الرفيعة الوضيعة، الاستعلائية والمحتقرة والإنسانية المتفهمة أو التي تبدو كذلك.

أما الهدف الثالث والأخير، فقد تمثل في "ضبط" المحتل في إحدى ذروات انكشافه وانكشاف وتهافت ادعاءاته الديموقراطية والإنسانية، وذلك من خلال صحافته المكتوبة أثناء ما سمي في حينه بعملية السور الواقعي التي بدأت بتاريخ 2002/3/29 وانتهت بتاريخ 2002/5/2، وفيها أعادت إسرائيل احتلال الضفة الغربية الفلسطينية بالكامل، وحاصرت فيها الرئيس ياسر عرفات في المقاطعة بمدينة رام الله، وحاصرت المواطنين في كنيسة المهد بمدينة بيت لحم، ودمرت أجزاء كبيرة من مخيم جنين، وقتلت العشرات من الفلسطينيين، وهدمت أجزاء كبيرة من المدينة القديمة في نابلس، وحاصرت وجوعت أكثر من مليوني فلسطيني لمدة تقارب الشهر، ووصفت تلك العملية -إسرائيلياً- بأنها حرب تذكر "بحرب الاستقلال" في العام 1948، وأنها "حرب على البيت" وحشدت إسرائيل لهذه العملية كل ما تستطيع عسكرياً وسياسياً وإعلامياً، إذ أنها تمثل تلك العملية كانت فعلياً تقوم باختراق اتفاق أوسلو وكل ما تم التوقيع عليه في السنوات السابقة مع السلطة الفلسطينية.

هذا البحث، يقوم برصد المستوى الإعلامي الذي تحركت فيه المؤسسة السياسية والعسكرية الإسرائيلية من أجل أن تبرر الهجوم والقتل والتدمير، ويرصد اللغة المستعملة في وصف "الأخر" العربي الفلسطيني، ويرصد الجدل الداخلي، ويرصد الأعماق النفسية والثقافية والوجدانية للغة المحتل وهو يقوم بعملية احتلال وقمع لشعب آخر.

تلخصت مهمة هذا البحث في رصد البعد التاريخي للغة المستعملة، والبعد المعرفي والبعد الاتني والبعد الإعلامي، بالإضافة إلى رصد المتغيرات التي طرأت وتطراً على مثل هذا الخطاب وأثر ذلك في نظرته إلى "الأخر" العربي الفلسطيني، في ظل عولمة لا تعترف بالحدود أو بالخصوصيات. وكانت مهمة هذا البحث محاولة التعرف على رواية المحتل عن نفسه من خلال صحافته ولغة صحافته، روايته التي يرسخها في وجدانه أو تلك التي يحاول أن يفرضها على الآخرين أو تلك الرواية التي يصارع من أجل أن تكون هي الرواية الرسمية المقنعة والمقبولة.

تجدر الإشارة هنا إلى أن المشهد الصحفي الإسرائيلي معقد بما يكفي، بحيث لا يمكن تقرير الحقائق بطريقة ميكانيكية أو سحبها على مجمل الأحداث والظواهر، فوصف الإعلام الإسرائيلي بالليبرالي لا يكفي، ووصفه أيضاً بالتجند للمؤسسة السياسية العسكرية لا يكفي، إن هذا الإعلام المتورط بصراع طويل ومعقد مع الشعب الفلسطيني والعربي من جهة، والمضطر إلى أن يفتح على السوق من جهة أخرى، يجعله يختار اتجاهات متعددة، تبدو ظاهرياً وكأنها متعددة -وهي كذلك فيما يخص الشأن الداخلي- ولكنها تتشابه في نظرته إلى "الأخر" العربي الفلسطيني إلى حد كبير، وتجدر الإشارة أيضاً بكثير من الموضوعية إلى أن هذا الإعلام يشهد بين الحين والآخر أصواتاً تغرد خارج السرب وتقول ما لا يرغب إسرائيلي أن يسمعه.

ولهذا السبب بالذات، فقد اتبعت المنهج التحليلي في فهم الظاهر داخل سياقاتها التاريخية والاجتماعية والفكرية، معتمداً على المنهج الأسلوبي الإنشائي القائم على تفكيك المفردة ومن ثم المصطلح ومن ثم النص بكامله لفهم مدلولاته وحمولاته الثقافية بكل تجلياتها، وقد استرشدت بأعمال ترفينتان ثودوروف وادوارد سعيد ومايكل برير وباولو فرييري وفرانز فانون، الذين درسوا بعمق وإحاطة وشمول لغة المستعمر وخطابه اللغوي الاستعلائي التحقيري، كذلك فقد استرشدت -خلال ذلك المنهج- بما توصل إليه باختين من المبدأ الحوارية لكشف العلاقات الباطنية في التعامل مع "الأخر" على إطلاقه، ولا أنسى في ذلك ما توصل إليه المفكر الإيطالي غرامشي بهذا الصدد.

وكانت أعمال هؤلاء وانجازاتهم توفر لي الأرضية والمنهج في قراءة لغة الخطاب الاعلامي الإسرائيلي خلال فترة البحث، وصولاً إلى تحقيق أهدافه.

ولهذا أيضاً، فقد قسمت البحث إلى ثلاثة فصول، تناول الأول منها تاريخ الصحافة الإسرائيلية منذ لحظة الوعي بالمسألة اليهودية قبل قيام إسرائيل حيث كانت صحافة دينية ثقافية بالدرجة الأولى، وهجست بالدوافع القومية والجدل الدائر حول أفضل السبل لتقرير المصير اليهودي، ثم أشرت إلى ما

كان من شأن الصحافة الإسرائيلية في فلسطين قبل عام 1948، تلك الصحافة التي عكست الجدل الدائر بين الأحزاب والحركات الصهيونية واتفاقها بشأن ما يسمى "بالوطن القومي لليهود"، بعد ذلك، عرضت للصحافة بعد قيام إسرائيل من حيث ارتباطها بالأحزاب وتجندتها للمؤسسة السياسية والعسكرية، ومن ثم وصولاً إلى خصخصة هذا القطاع وانفتاحه على السوق العالمي.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن نقاط القوة والضعف لهذا الخطاب من حيث تحوله إلى سلطة مؤثرة على الحياة السياسية والاقتصادية في إسرائيل، فتعرضت بكثير من التفصيل إلى الحديث عن التحولات العميقة في ملكية وسائل الإعلام الإسرائيلية وعلاقة ذلك بالنخب السياسية والعسكرية، وعن تحول هذا الإعلام في شكله ومضمونه بسبب الانفتاح على السوق من جهة وضعف المؤسسات الرسمية من جهة أخرى، وكذلك ظهور الشركات وتمركز السلطة وانفتاح السوق الإعلامي الإسرائيلي أمام الشركات العالمية وانتقال الإعلام الإسرائيلي نفسه إلى الخارج، وأشارت إلى أن واقع العولمة لم يؤدي إلى انفلات أو تحرر وسائل الإعلام الإسرائيلية من سيطرة النخبة السياسية والعسكرية فيما يخص النظرة إلى العربي الفلسطيني، وفي هذا الفصل أشارت أيضاً إلى آليات عمل الإعلام الإسرائيلي في زمن الحرب، وقد تمثلت هذه الآليات في استخدام وسائل الحرب النفسية المختلفة في التأثير على الطرف المقابل، وكذلك في طريقة اختراق هذا الإعلام للرأي العام العالمي وأسلوب التحدث إلى الغرب خاصة، وفي هذا الصدد أيضاً، تناولت عدداً من المواقع الالكترونية الصهيونية ومضامينها خلال فترة البحث، وقد خلصت في نهاية هذا الفصل إلى القول إنه على الرغم من أن ملكية وسائل الإعلام قد تغيرت من رسمية إلى خاصة إلا أنها ظلت أداة طيعة بيد النخبة السياسية والعسكرية بهذا المدى أو ذاك.

أما الفصل الثالث، وهو الفصل الأطول والأكثر أهمية، باعتبارها يمثل هدف البحث ومركزه، فقد تناول بالتفصيل مضامين الخطاب الإعلامي الصهيوني خلال ما يسمى بعملية السور الواقعي من حيث لغة هذا الخطاب، حيث تم رصد ثلاثة مستويات من هذه اللغة وصفت العلاقة مع العربي الفلسطيني، وتراوحت ما بين لغة براغماتية وأخرى حادة وعنصرية وثالثة حاولت أن تجد إنسانيتها من خلال الاعتراف المنقوص بهذا العربي الفلسطيني، كذلك فقد تعرضت في هذا الفصل إلى المصطلح الذي يستعمله الخطاب الإعلامي الصهيوني خلال عملية توصيفه للعربي الفلسطيني، فوجدت أنه مصطلح ملغوم وموارب ومعني بتثبيت ما يريد ويخدم المؤسسة السياسية وبلغني أو يحذف ما لا يتناسب معها أيضاً، وتناولت أسلوب السرد الصحفي وتتبع أخطائه وقدرته على إنشاء رواية تتماهى مع الرؤية الفكرية والسياسية التي لا تعارض عقلية الاحتلال والسيطرة، كما درست استخدام العناوين في الصحف

الإسرائيلية الصادرة في فترة البحث، فوجدت أنها لا تعبر عن مضمون الخبر، وأنها توضع من أجل الإثارة أو التعبئة أو إثارة الخوف، كما وجدت أن الصحف الإسرائيلية تعتمد إلى الحذف والتعميم وعدم الإشارة إلى كامل الصورة من منطلق أن ذلك سيحرج الإجماع والوعي والأخلاق الاسرائيلية، كما أشرت إلى ذلك التتميط اللغوي المستعمل في تلك الصحف وكيف أنه يحشر العربي الفلسطيني في صورة لا يستطيع أن يخرج منها أولاً ولا يستطيع أن يعبر عن نفسه ثانياً ولا أحد يريد أن يستمع إليه ثالثاً. ولا أدعي أنني قمت بعمل لم يسبقني إليه أحد، فقد كتب العديد من الخبراء والباحثين العرب والفلسطينيين بهذا المجال، وهناك مراجع ومواد كثيرة متوفرة، ولكنني أدعي أنني تقدمت خطوة إلى الأمام من حيث إضاءة التفاصيل والذهاب بعيداً في ملاحقة المفردة ودلالاتها وكذلك من حيث إشكاليات سرد الرواية وتأليفها والعمليات -الواعية وغير الواعية- في تصديق هذه الرواية ونشرها وعدم مناقشتها، وادعي أن هذه الدراسة من الدراسات النادرة -فلسطينياً على الأقل- التي تصدت لنقد الخبر الإسرائيلي وتبيان تفاهته وعدم صدقيته وانحيازه واختراقه لكل المعايير الصحفية المهنية، وكذلك ارتباطه بالمؤسسة الأمنية.

وبسبب من توفر المواد والمراجع، ومعرفتي باللغة العبرية والإنكليزية، وبسبب من مساعدة ومساندة الأستاذ الدكتور عزيز حيدر ومتابعته لي وتوجيهاته الغنية والهامة، ووقوف عدد من الأصدقاء إلى جانبي من أجل إعداد هذا البحث، فقد وفقني الله تعالى لأن أنجز الدراسة في الوقت المحدد لها، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه.

Abstract:

This paper studies the wording of the Israeli informative speech and discourse via the contents and features of this speech over a particular interval; the weeks that witnessed what, in the Israeli context, is called the Defensive/Deterrent Enclosure Operation that started on 29th March 2002 and ended on 2nd of May 2002.

The study explores the intellectual and historical backgrounds that led to the development of an Israeli journalistic language that aims to criminalize the Palestinian and nullify the legitimacy of the Palestinian and his statements. This was manifested explicitly during the Defensive/Deterrent Enclosure Operation where the Israeli mass media played a very significant and vital role especially newspapers; which in spite of conveying to private properties, the newspapers always adopt and propagate the official version of the Israeli government without arguing, objecting, criticizing or modifying it.

These newspapers justified the vicious attacks, aggression, starvation and besieging actions against the Palestinian people. The journalistic coverage of this massive military operation, which was the first and biggest of its kind since 1967 in the West Bank and Gaza Strip, exploited a special wording that appeared and reinforced during the conflicts and aggravating tension. It is mainly characterized by being a language that purposes to justify, vindicate and persuade; thus, this language used to cover this operation was rife with lies, distortion, degradation, indignities and faults not only at the level a word, but also in the method of narrating the news, the headlines, the way of describing the Palestinian individual and how the reporters/media personnel are acquainted and understand the Palestinian.

The study identifies and differentiates between three levels of wordings used in the Israeli journalistic coverage during the Defensive/Deterrent Enclosure: first, the Pragmatic Level which is

used by politicians; it is changeable upon the circumstance. The flagrant Ideological level which refuses entirely to recognize the Palestinian. The third level is the one that the Israelis prefer and use to focus on their suffering and tragedies so as to protect and maintain the pure Hebrew nation and morals. The study approves many defects and flaws in the formation and drafting of the Israeli news and the techniques applied as well as intentional mistakes in narrating the event and deliberate intention to mode the Palestinian so to overlook and disregard him and eventually to dispossess him from the right to express and talk.

Moreover, the study tackles the history of the written Israeli Journalism in addition to its role and influence, although it has become a private property, on the various political and economic life aspects in Israel.

ملخص الدراسة

تتناول هذه الدراسة لغة الخطاب الإعلامي الإسرائيلي من خلال مضامين هذا الخطاب خلال فترة محددة هي فترة الأسابيع التي شهدت ما سمي في حينه إسرائيلياً بعملية السور الواقى والتي بدأت بتاريخ 2002/3/29 وانتهت فعليا بتاريخ 2002/5/2.

تتعرض الدراسة الى الخلفيات الفكرية والتاريخية التي أدت الى تطور لغة صحفية إسرائيلية تهدف الى تجريم الفلسطيني وسحب الشرعية عنه وعن مقولاته، وقد ظهر ذلك جليا في عملية السور الواقى حيث تجندت وسائل الإعلام الاسرائيلية وخاصة الصحف - رغم تحولها الى ملكيات خاصة- في تبني الرواية الرسمية في للحكومة الاسرائيلية دون ان تعترض عليها او تنتقدها او تعدلها، كما بررت هذه الصحف عملية الهجوم على الشعب الفلسطيني وحصاره وتجويعه، ان التغطية الصحفية لهذه العملية العسكرية الضخمة والتي لم يجر مثلها منذ حرب 1967 في مناطق الضفة والقطاع، استخدمت لغة خاصة تظهر وتتغزز في فترات الصراع واشتداد التوتر، وتتصف بأنها لغة تهدف الى التبرير والتسويق والإقناع، ولهذا فان لغة التغطية لهذه العملية كانت لغة فيها الكثير من الكذب والتشويه والتحقير والإهانة والنقص ليس على مستوى المفردة فقط بل على مستوى سرد الخبر وعنوانه وعلى مستوى وصف الفلسطيني او مستوى التعرف عليه او فهمه.

وقد ميزت الدراسة بين ثلاثة مستويات للغة التغطية الصحفية الاسرائيلية خلال عملية السور الواقى:

أما الأول فهو المستوى البراغماتي الذي يستعمله السياسيون، وهو متغير حسب الظروف أما الثاني فهو المستوى الايديولوجي الفاضح الذي يرفض الاعتراف بالفلسطينيين إطلاقاً. أما المستوى الثالث فهو المستوى الذي يرغب فيه الاسرائيلي الاعتراف بالفلسطيني ومعاناته بهدف الحفاظ على نقاء الدول العبرية وأخلاقها. وقد أثبتت الدراسة عيوباً كثيرة في صياغة الأخبار الاسرائيلية وكيفيات صياغتها وأخطاء مقصودة في سرد الحدث ورغبته مقصودة في تنميط الفلسطيني من اجل تهميشه وسلب حقه في الكلام.

بالإضافة الى هذا فقد عرضت الدراسة تاريخ الصحافة الاسرائيلية المكتوبة وعرضت تأثير وتأثر الصحافة رغم تحولها الى ملكيات خاصة بمجمل الحياة السياسية والاقتصادية في اسرائيل.

الفصل الأول: التاريخ والأسس

1. مراحل النشاط الصحفي العبري المكتوب:

لم يكن من قبيل الصدفة أن يهتم تيودور هر تسل بالصحافة ودورها بالذات، فقد كان الرجل صحفياً محترفاً، ولهذا فقد كتب في افتتاحية العدد الأول من أسبوعية الحركة الصهيونية "دي وول ت" بتاريخ 1897/06/03، عشية التتأم المؤتمر الصهيوني الأول "يجب عل هذه الصحيفة أن تكون درعا وسلاحاً للشعب اليهودي، وسلاحاً يستخدم ضد أعداء الشعب".¹

يأتي هذا الكلام المبكر إدراكاً لدور الصحافة في خدمة الحركة الصهيونية تحقيقاً وترجمة للنشاط الصحفي الذي رافق وتطور ونما بحركية النشاط الصهيوني خارج وداخل فلسطين منذ بدايات القرن التاسع عشر وامتد حتى هذه اللحظة.

ويمكن القول أيضاً أن النشاط الصحفي اليهودي ومن ثم الصهيوني خارج البلاد و داخلها كان مرتبطاً بالأحداث والتطورات التي شهدتها أوروبا وروسيا من حيث علاقة هذه الأطراف باليهود ومن ثم بالحركة الصهيونية، وعليه يمكن تقسيم النشاط الصحفي اليهودي تاريخياً حسب المراحل التالية:

المرحلة الأولى: الصحافة العبرية في روسيا وأوروبا في القرن التاسع عشر، وقد شكلت الأساس لتوجهات الصحافة العبرية بعد ذلك لعقود طويلة.

المرحلة الثانية: الصحافة في فترة الحكم العثماني وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

المرحلة الثالثة: الصحافة في ظل الانتداب البريطاني وحتى قيام الدولة.

المرحلة الرابعة: الصحافة بعد قيام الدولة.²

وفيما يلي استعراض سريع لملامح كل رحلة من هذه المراحل وإيجاز لأهم مواضيعها ومضامينها وأهدافها.

¹ صالح أنعامي: "العسكر والصحافة في إسرائيل" القاهرة، دار الشروق، 2005، ص17

² اعتمدنا هذا التقسيم لتسهيل الدراسة النظرية خاصة وأن هناك من اعتمد تقسيمات أخرى بحيث تم إغفال الصحافة اليهودية في روسيا وأوروبا.

أولاً: الصحافة العبرية في روسيا وشرق أوروبا في القرن التاسع عشر

تميز النصف الثاني من القرن التاسع بأزدحام الأفكار والرؤى المختلفة لحل مشكلة اليهود في روسيا وأوروبا، ففي الوقت الذي دعت فيه حركات منتورة إلى فكرة الاندماج في المجتمعات التي يتواجد فيها اليهود، واجهتها حركات أخرى دعت إلى فكرة الانعزال والحفاظ على التراث اليهودي، حركة الهسكله بجناحيها العلماني و المحافظ، وجددت في الصحافة مجالاً للدعوة إلى أفكارهما ورؤاهما^٣. أما الداعون للاندماج فقد اصدروا صحفا باللغة الروسية، وأما مخالفيهم فقد اصدروا صحفا باللغة العبرية، وكان مجال الاختلاف والتباين هو شرعية الاندماج أو مده أو جدواه، وكانت حصيلة هذا الجدل كبيرة، فقد صدرت في مدينة اوديسا، على البحر الأسود، أول صحيفة اسبوعية باللغة العبرية في روسيا عام 1860 تحت اسم "هاميلي تس" التي انتقلت سنة 1871 إلى بطرسبورغ وظلت تصدر حتى عام 1903^٤. كما صدرت عام 1860 في مدينة فيلنا بليتوانيا صحيفة "هكرمل" الأسبوعية ومن ثم تحولت إلى شهريّة وتوقفت عن الصدور عام 1879^٥.

بعد ذلك، صدرت صحيفة "هاتسفيراه" عام 1862 في وارسو وتوقفت عن الصدور عام 1931. وفي فينا صدرت صحيفة "هشاحار" الشهرية في ذات العام وتوقفت عن الصدور في العام 1884. وفي عام 1856 ظهرت أول صحيفة أسبوعية باللغة العبرية في مدينة "ليك" بألمانيا تحت اسم "هاما غيد" وتوقفت عام 1903 بعد أن تنقلت ما بين برلين وكرالو^٦.

يمكن القول أن القرن التاسع عشر شهد نشاطاً صحفياً عبرياً ضخماً، ليشير إلى عمق الجدل وتعدد الرؤى واختلاف المصالح بين الطوائف اليهودية والحركات الفكرية التي عبرت عنها، فقد صدر في هذا القرن ما يزيد على 160 صحيفة أو نشرة في مختلف أنحاء أوروبا^٧، وقد كتب في أهم هذه الصحف كبار الكتاب اليهود من أمثال سمولينسكين، ويهودا ليف غوردون، وموشيه ليلينبلوم وناحوم سولوكوف. وقد لعبت مقالات هؤلاء وآرائهم على تهيئة البيئة الخصبة والمناسبة لنشوء الأفكار الصهيونية الأولى

^٣ صبري جريس: "تاريخ الصهيونية" الجزء الأول، القدس، 1978، ص 39-40

^٤ المصدر السابق ص 40

^٥ المصدر السابق

^٦ المصدر السابق

^٧ المصدر السابق

ومن ثم الحركة الصهيونية بمضمونها الذي نعرف، وكذلك في نشر الأفكار والآراء المناهضة والمؤيدة لها.

ثانياً: الصحافة العبرية تحت الحكم العثماني في الحرب العالمية الأولى:

كان التيار الديني الأرثوذكسي "الحريدي" هو السباق لإصدار أول صحيفة عبرية في فلسطين العام 1863، إذ بادر كل من موشيه سالمون وميخائيل كوهين إلى إصدار صحيفة "هليفانون" في مدينة القدس، بهدف نشر الإعلانات وليس بهدف نشر أفكار محددة، وبهذا كانت أول صحيفة عبرية تصدر في فلسطين ذات أهداف اقتصادية محضة^٨. وفي ذات العام -عام 1863_ أيضاً، اصدر الحاخام يسرائيل باك صحيفة ثانية اسماها "حافيتسليت" بعد أن أنشأ أول دار للطباعة في فلسطين^٩. وفيما كانت صحيفة "هليفانون" تجارية كانت الصحيفة الثانية لسان حال الجناح الحسيدي في التيار الديني الاشكنازي اليهودي في فلسطين، وتنا فست الصحفتان على كسب ثقة الجمهور، وقد أدى التنافس بينهما إلى الوشاية ضد بعضها البعض لدى السلطات العثمانية_ إذ كانت تصدران دون إذن من السلطات_، الأمر الذي أدى إلى إغلاق الصحفتين^{١٠}.

لم يطل الوقت الذي ظل فيه التيار الأرثوذكسي متحكماً بإصدار الصحف، فقد قام أحد المستشارين اليهود لقيصر النمسا ويدعى فرانس يازيف بلقناع قيصر بتزويد أحد الشبان اليهود المهاجرين حديثاً إلى فلسطين بأحدث مطبعة أنتجت في أوروبا ذلك الحين، وبعد ذلك توالى جلب المطابع للتجمعات السكانية اليهودية في فلسطين، الأمر الذي أدى إلى ازدهار الصحف العبرية^{١١}. ازدياد المطابع من جهة وتنوع المهاجرين من جهة أخرى، دفع بالصحافة إلى أن تتبنى أكثر فأكثر الأطروحات الصهيونية وتدعوا إليها في أوساط المهاجرين اليهود في فلسطين، ففي العام 1872 صدرت صحيفة "شعاري تسيون" بهدف تثقيف الشباب اليهودي وتعميق إدراكه بتاريخه القديم وكذلك نبذ الخلافات والوحدة والنضال من أجل الوجود اليهودي في فلسطين^{١٢} وفي العام 1874 أصدرت صحيفة "هآريان" التي

^٨ المصدر السابق

^٩ ليمور كاسبي: "وسائل الإعلام الجماهيرية في إسرائيل" تل أبيب، الجامعة المفتوحة، 1998 ص 101

^{١٠} المصدر السابق ص 102

^{١١} شوشانا هليفي: "تطور الصحافة العبرية في أرض اسرائيل" القدس كيشر 1989 ص 12

^{١٢} المصدر السابق ص 15

دعت الى تكثيف الهجرة وتسريع وتيرة الاستيطان^{١٣}. وفي العام 1884م أصدر اليعازر بن يهودا الذي يوصف بأن هأبو اللغة العبرية باعتباره الشخص الذي دعى إلى استعمال هذه اللغة بشكل يومي أصدر صحيفة "هتسفي" الأسبوعية ومن ثم تحولت إلى يومية عام 1907 وتغير اسمها إلى "هأور"^{١٤}. ومع بداية القرن العشرين، ومع ازدياد أعداد المهاجرين، صارت الصحافة العبرية تعبر أكثر فأكثر عن الاختلافات الحزبية والأيدلوجية^{١٥}، فقد أسس المهاجرون اليهود من أوروبا والمنتجون إلى حركة "هبوعلي هتسفير" صحيفة تحمل اسم حركتهم عام 1907 فيما أصدرت حركة "أحدوت" صحيفة تحمل اسم الحركة عام 1909، وقد صدرت صحيفة "هجرروت" لتعبر عن اليهود الشرقيين في فلسطين عام 1912، وصحيفة "موريا" لتكون لسان حال اليهود المتدينين الأرثوذكس عام 1910. ورغم هذا النشاط الكبير، إلا أن السلطات العثمانية أغلقت جميع الصحف أثناء الحرب العالمية الأولى^{١٦}.

ثالثاً: الصحافة العبرية تحت الانتداب البريطاني وحتى قيام الدولة:

ما أن انتهت الحرب العالمية الأولى، وصدور وعد بلفور، حتى فتح الباب واسعاً أمام الحركة الصهيونية لتعمل بشكل كبير في كافة المجالات، هجرة واستيطاناً وتأسيساً لبنية تحتية قوية، وكذلك تسريعاً في النشاط الصحفي والفكري. وقد تميزت الصحافة العبرية في هذا الوقت بالاختلافات البينية والواضحة حول المسائل الحزبية والأيدلوجية_ رغم اتفاقها على الأهداف الصهيونية الكبرى^{١٧}، وعليه فقط صدرت في هذه الفترة الصحف التالية _ وهي صحف ما يزال بعضها يصدر حتى اللحظة^{١٨} _:

١. هآرتس وهي الملحق العبري للصحفية التي اصدرتها سلطات الانتداب عام 1918 تحت اسم "ذي بلستين نيوز" بالإنكليزية. وفي العام 1919 اشترى هذا الملحق يهودي روسي وجعلها مستقلة، ومن ثم اشترها الأخوان شلومو وزلمان شوكن عام 1937، وما تزال هذه الصحيفة تصدر حتى اليوم وتعتبر صحيفة "الصفوة".

^{١٣} المصدر السابق ص 16

^{١٤} المصدر السابق ص 17

^{١٥} كاسبي، ص 11

^{١٦} كاسبي، ص 12

^{١٧} حبيب كنعان "حرب الصحافة" القدس، المكتبة الصهيونية، ص 17-20

^{١٨} النعامي، مصدر سابق، ص 20-22

٢. يديعوت أحرونوت وقد أصدرها غيرشوم كوماروف عام 1939 وهي أول صحيفة تابلويدي، وتعتبر الآن أوسع الصحف الإسرائيلية انتشاراً وتحتكر حوالي 50% من التوزيع.
٣. معاريف التي أسسها عدد من الصحفيين العاملين في يديعوت احرونوت عام 1948 وتعتبر ثاني صحيفة في اسرائيل انتشارا.
٤. صحيفة "دوار هيوم" صدرت عام 1919 ورأس تحريرها زئيف جابوتنسكي مؤسس الحركة التصحيحية ومنظر حركة حيروت التي انتهت إلى حزب الليكود، وقد تبنت هذه الصحيفة فكراً متطرفاً.
٥. صحيفة دافار التي صدرت عام 1922 وكان يقف وراءها نقابة العمال العامة الهستدروت بقيادة حزب مبلبي الذي انتهى إلى حزب العمل. واعتبرت هذه الصحيفة نقلة نوعية في الصحافة العبرية في ذلك الوقت. نتيجة لتوجهات الصحيفة وطريقة وشكل الطباعة وتنوع المضامين.
٦. صحيفة "هعام" التي صدرت عام 1931، وقد أسستها الحركة التصحيحية وكانت متطرفة فأغلقتها سلطات الانتداب، فاضطرت الحركة إلى إصدار صحيفة أخرى تحت اسم "هياردين" الحركة التصحيحية كانت تدعو إلى إحتلال الأردن أيضاً.
٧. صحيفة همشكيف صدرت عام 1938، ووقفت وراءها الحركة التصحيحية أيضاً ورأس تحرير الصحيفة جابوتنسكي نفسه.
٨. صحيفة "هتسوفيه" صدرت عام 1938 عن حركة "همزراحي" الدينية الصهيونية التي انتهت إلى حزب المفال، وهذه الصحيفة ما تزال تصدر حتى هذه اللحظة.
٩. صحيفة "مشممار" صدرت عام 1943 عن حركة "هشوم بير هتسعير" وفي عام 1948 تحول اسم الصحيفة إلى "علمشممار" وأصبحت لسان حال حزب "مبام".
١٠. صحيفة "كول هعام" صدرت عام 1947 عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي.
١١. صحيفة هموديع" صدرت عام 1947 لسان حال حزب "اجودات يسرائيل" الحزب الاستنكاري الارثوذكسي الحسيدي.

وفي هذا الصدد، فإن الحركة الصهيونية انتهت إلى تسويق دعاويها بين صفوف الفلسطينيين العرب، فاصدرت الصحف التالية باللغة العربية في وقت مبكر جدا، وهي على التوالي:

١. صحيفة "بريد السلام" وصحيفة "بريد اليوم" صدرتا في العام 1920 بتمويل من دار "هاسلوليل" وقد توقفت الصحيفتان بعد عدة أشهر.

٢. صحيفة "السلام" صدرت بعد توقف الصحيفتين السابقتين، وقد رأس تحريرها نسيم ملوم، وكان هذا الشخص قد اصدر صحيفة "الأخبار" عام 1919.

٣. صحيفة "اتحاد العمال" صدرت عام 1925، وكانت تصدر كل أسبوعين ثم كل أسبوع في العام 1926.

٤. أسبوعية "حقيقة الأمر" صدرت عام 1936.^{١٩}

إن هذا الاهتمام المبكر لدور الصحافة في نشر الدعاوي في صفوف الشعب العربي الفلسطيني لم ينقطع يوما كتوجه أصيل لدى الحركة الصهيونية في زعزعة وتشكيك الرؤية للطرف الآخر.

رابعاً: الصحافة بعد قيام الدولة:

بعد قيام الدولة العبرية عام 1948، شهد قطاع الصحافة تغيرات جذرية هامة يمكن تلخيصها بالتالي:-

١. تراجع دور الصحافة الحزبية، وذلك لقوة لجهة جهاز الدولة من جهة وانخفاض مستوى الاهتمام بمؤسسة الحزب التي كانت تقوم مقام الدولة من جهة أخرى^{٢٠}.

٢. تقلص استعداد الإسرائيليين للاعتماد على مصدر واحد للمعلومات^{٢١}.

٣. نشوء الصحافة المستقلة القائمة على التنافس وتحصيل الأرباح الإقتصادية، ولهذا فقد أغلقت معظم الصحف الحزبية الصادرة عن الأحزاب الإسرائيلية ما عدا الدينية منها، لأن هذا

^{١٩} المصدر السابق، ص 22

^{٢٠} أمل جمال "الصحافة والإعلام في إسرائيل، رام الله، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2005، ص 49

^{٢١} النعامي، مصدر سابق، ص 24.

الجمهور لا يرضى عن الصحف الخاصة^{٢٢} دون أن نغفل حقيقة أن الصحافة الحزبية ظلت تتواجد بشكل أو بآخر حتى سنوات الثمانينات.

وعليه يمكن تقسيم النشاط الصحفي_ونحن هنا نتناول الصحافة المكتوبة بالذات_ على النحو التالي:

1. الصحف المستقلة الخاصة "الصحافة التجارية"

وهي المتمثلة في الصحف الثلاثة الأشهر التي تملكها عائلات إعلامية، حولت نفسها إلى إمبراطوريات إعلامية كبرى لا تكتفي باحتلال الصحف فقط وإنما عقارات و محطات إذاعية وتلفزيونية ومصارف وحسابات في البنوك. ويعزو د. أمل جمال صعود هذا القطاع الصحفي الخاص إلى "إهتزاز قوي في الأسس السياسية والميول الأيدولوجية للمؤسسة المهنية والتغيرات الكبرى في توزيع السكان وتزايد عدد الناطقين بالعبرية كلغة أم ورغبة الجمهور في صحف متحررة من التزامات سياسية"^{٢٣}. وتتمثل هذه الصحافة المستقلة والتجارية بالصحف الكبرى الثلاث كما أسلفنا وهي صحيفة "يديعوت أحرונوت" التي تملكها عائلة "موزيس"، وهذه الصحيفة هي الأوسع إنتشارا وقد طورتها العائلة من خلال إصدار شبكة من الصحف المنطقية وصحيفة باللغة الروسية ودار نشر كبرى وأسبوعية نسائية وأخرى شبابية واسهما في شبكات تلفزيونية مختلفة^{٢٤}. وهناك صحيفة "معاريف" التي تملكها عائلة نمرودي، وهذه الصحيفة هي الثانية من حيث التوزيع والانتشار، ويصدر عنها عدد من الصحف المجالات ال مناطوقية والمتخصصة والعائلة المالكة تملك عقارات واسهما ودار نشر^{٢٥}. أما الصحيفة الثالثة فهي صحيفة "هآرتس" التي تملكها عائلة شوكن، وتعتبر هذه الصحيفة خاصة "بالنخبة"^{٢٦}، وتمتلك عائلة شوكن بالإضافة إلى هذه الصحيفة أكبر شبكة من الصحف المناطوقية واسبوعية باللغة الروسية ومطبعة ودار نشر وشركات حاسوب وتلفزة^{٢٧}.

٢. الصحافة الدينية:

^{٢٢} المصدر السابق، ص24

^{٢٣} جمال، مصدر سابق، ص54

^{٢٤} النعامي، مصدر سابق، ص25، وكذلك جمال، مصدر سابق، ص60-61

^{٢٥} جمال، مصدر سابق، ص63

^{٢٦} جمال، مصدر سابق، ص57

^{٢٧} النعامي، مصدر سابق، ص25

يشكل المتدينون على إختلاف طرائقهم حوالي 22% من سكان إسرائيل، وهم على إختلافهم العقائدي والإثني، يعبرون عن أنفسهم من خلال صحف تعكس هذا الإختلاف تماماً، وتعمل هذه الصحف أبواباً دعائياً للقائمين على تلك الأحزاب والحركات^{٢٨}. وفي إسرائيل اليوم ثلاث صحف يومية ودينية وحريدية هي: "هتسوفيه" و"هموديع" و"يتيدنئمان"، أما "هتسوفيه فتصدر عن حزب م فداال وهو الحزب الديني القومي قبل قيام إسرائيل كما أسلفنا، أما "هموديع" فهي لسان حال "أغودات يسرائيل وتعد الصحيفة الأقدم انتشاراً^{٢٩}. وتعتبر عن افكار غير صهيونية، أما صحيفة "يتيدنئمان" فقد صدرت عام 1985 في أعقاب انشقاق الحاخام اليعازر شاخ زعيم القسم اللتواني في حزب أغودات يسرائيل^{٣٠}. ومن ثم أسس حزب "ديغى هتوراه" وصحيفة "يتيدنئمان" تختلف عن الصحيفتين الدينيتين السابقتين بأنها صحيفة تقبل نشر إعلانات وتقبل الخوض في شؤون الدنيا^{٣١}.

إلى ذلك، فقد اصدر حزب "شاس" صحيفة "يوم ليوم" وصحيفة يوم "شيشي" التي صدرت عام 1983^{٣٢}. وصحف أخرى مثل "عيريف شببات" و"شعاريم" و"همحنيه هحريدي"^{٣٣}.

الصحف الحزبية الدينية تشرف عليها "لجان روحية" يشكلها كبار الحاخامات، أما تلك الصحف الدينية التي تصدر بشكل مستقل فقد تحررت من هذه اللجان كالصحيفة الأسبوعية الأكثر إنتشاراً "يوم شيشي"^{٣٤} وما يميز الصحافة الدينية بشكل تعام هو تبنيها آراء متطرفة ومنتشدة ضد العرب الفلسطينيين^{٣٥}.

٣. الصحافة الروسية:

نتيجة لتدفق المهاجرين الروس وخاصة بعد التسعينات من القرن الماضي_ بعد انهيار الاتحاد السوفيتي_ فقد طرأ تحول كبير في التركيبة الديموغرافية الإسرائيلية، بحيث بلغت نسبة المهاجرين الروس في إسرائيل أكثر من عشرين بالمائة. هذا الأمر دفع بالكي وسائل الإعلام وخاصة الصحف_

^{٢٨} نبيه بشير: "عودة الى التاريخ المقدس: الحريدية والصهيونية"، دمشق، - قدمس للنشر والتوزيع، 2005، ص60

^{٢٩} جمال، مصدر سابق، ص81

^{٣٠} جمال، مصدر سابق، ص1 نقلا عن مناحيم ميخلسون: صحافة دينية متشدة في اسرائيل، كيشر، عدد8، 1990، ص11

^{٣١} يائير شيلغ، "المتدينون الجدد"، قضايا إسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2002، ص18-19

^{٣٢} النعامي، مصدر سابق، ص26

^{٣٣} جمال، مصدر سابق، ص82

^{٣٤} النعامي، مصدر سابق، ص26

^{٣٥} المصدر السابق، ص27

إلى تخصص مطبوعات باللغة الروسية، خاصة وأن هؤلاء المهاجرين انغمقوا ثقافيا واجتماعيا وليس سياسيا^{٣٦}، باعتبار هؤلاء أولا وأخيرا مجرد سوق إعلامي كبير، ولهذا أصدرت عائلة "موزس" صحيفة "قيستي" بالروسية لتصبح من أوسع الصحف انتشارا، ولم تتدخل العائلة في مضامين الصحيفة بل تركت ذلك لهيئة التحرير، وكان كل ما يعنيه هو الربح^{٣٧}، بالإضافة الى هذه الصحيفة هناك أيضا صحف أخرى صدرت في أواخر الستينات ومنتصف السبعينات، وكانت تغلق بعد عدة سنوات من صدورها بسبب إفلاسها، ويشير د. أمل جمال إلى أن هناك 137 نشرة باللغة الروسية ما بين صحيفة يومية وأسبوعية ومجلة ونشرة دورية حتى العام 1998^{٣٨}. وتتميز الصحافة الروسية عموما بأنها تتبنى مواقف متشددة ضد الشعب الفلسطيني وتعبّر عن مواقف يمينية قومية، وأنها _ لذلك _ تقوم بتحرير الأخبار المتعلقة بالصراع العربي الإسرائيلي دون توشي أي درجة من المعايير المهنية والموضوعية^{٣٩}. وتتراوح اتجاهات الصحف الروسية ما بين الرغبة في سرعة الاندماج في المجتمع الإسرائيلي وعدم تطوير هوية ثقافية خاصة للمهاجرين الروس، وبين الرغبة في إظهار أن هناك حدودا معينة بين المهاجرين والمجتمع الجديد^{٤٠} وعلى الرغم من الشد والجذب بين هذين الاتجاهين إلا أن اللغة الروسية من جهة وقواعد السوق من جهة أخرى، واعتماد تلك الصحف على التمويل الخاص، يجعل من تلك الصحف تقوم حقا بدور إبقاء المهاجرين الروس ضمن دائرة ثقافية منعزلة إلى حد كبير.

٤. الصحافة العربية:

رغم أن الصحافة العربية خارج نطاق هذا البحث، إلا أن من المفيد القول أن الصحف العربية قبل عام 1948 كانت كثيرة ومتعددة منها الكرمل (1908) و السفير (1913) وفلسطين (1931) والجامعة العربية (1927) والصرط المستقيم (1924) والجامعة الإسلامية (1932) واللواء (1936). ولكن قيام الدولة العبرية أوقف كل ذلك ما عدا صحيفة الاتحاد لسان حال الحزب الشيوعي، ومن جهتها، قامت

^{٣٦} مسعود اغبارية: المهاجرون الروس الجدد وانتخابات 2003 في إسرائيل: اندماج اجتماعي سياسي وليس ثقافيا، فصلية "قضايا إسرائيلية"، العدد 9، 2003، ص49.

^{٣٧} النعامي، مصدر سابق، ص27

^{٣٨} جمال، مصدر سابق، ص87، نقلا عن الباحثين دان كاسبي وبتلي الياس: "عن الإعلام باللغة الروسية في إسرائيل"،

سوسيوولوجيا إسرائيليت، جزء2، عدد 2، 2000، ص (455.415)

^{٣٩} النعامي، مصدر سابق، ص29.

^{٤٠} يقول د. جمال بهذا الصدد ان هناك اتجاهان تعكسهما هذه الصحف هما: الانصهار والاندماج، الانصهار هو نفي الحدود بين المهاجرين والمجتمع والاندماج هو إبقاء تلك الحدود بشكل موضوعي، جمال، مصدر سابق، ص 93-94.

أجهزة حكومية وأحزاب صهيونية أخرى بإصدار صحف ناطقة بالعربية أهمها صحيفة "اليوم" الحكومية ثم صحيفة "الأنباء" وكذلك صحيفة "المرصاد" التابعة لحزب م بلم (1952) وكذلك مجلة "الفجر" التي صدرت عن ذات الحزب عام 1961 لتروج لأفكار التآخي والاشتراكية والسلام، وكذلك أصدر حزب "أحدوت هعفوداه" صحيفة "الأمل" عام 1959. وأصدر الصهيونيون العموميون نشرة "المركز" منذ عام 1955.^{٤١}

شكلت سنوات الثمانينات بداية جديدة للصحافة العربية، فقد صدرت صحيفة الصرارة عام 1983، وكل العرب عام 1987، وبنوراما في ذات السنة، "صوت الحق والحرية" في عام 1989، والصحيفة تابعة للحركة الإسلامية داخل إسرائيل، وفي التسعينات صدرت فصل المقال التابعة لحزب التجمع الوطني الديمقراطي. وتواجه الصحافة العربية في إسرائيل الكثير من المصاعب والعقوبات المالية والإدارية والمهنية والصراعات المختلفة الأمر الذي يجعلها أقل مستوى من نظيرتها العبرية وأقل تأثيراً على قرائها أيضاً.^{٤٢}

^{٤١} عطا الله منصور: "الصحافة العربية في إسرائيل" كيشر، عد 7، أيار 1990، ص 71-77.

^{٤٢} جمال، مصدر سابق، ص 104 - 110

2. أسس ومنطلقات الخطاب الصحفي العبري في مراحلہ المختلفة

يمكن القول أن الخطاب الصحفي العبري كان في إطاره العام يعبر عن هدف واحد ذا تفاصيل عديدة ، أو أن هناك هدفا واحدا يغير من أولوياته في كل مرحلة من مراحلہ، فالخطاب الصحفي العبري في روسيا وأوروبا الذي كان يهدف إلى حل مشكلة اليهود كما طرحت على الوعي والسياسة والمجتمع في حينه تراوح في مضامينه ما بين فكرة الاندماج في المجتمعات التي يعيش فيها اليهود وبين فكرة إقامة كيان خاص لهم أو الانعزال ضمن أطرٍ معيَّنة. ولكن هذا الخطاب الذي تردد بين هاتين النزعتين أدى إلى:

1. طرح مسألة اليهود بقوة على صناع القرار في ذلك الوقت
2. أحياء التراث اليهودي واللغة اليهودية وبالتالي إحياء فكرة "القومية اليهودية".
3. تداول فكرة إقامة كيان يهودي خاص تكون له استقلالية ما.
4. تحديد العلاقة أو فهمها مع الغرب المسيحي.
5. محاولة تجميع قوى اليهود ومقدراتهم وكفاءاتهم من أجل الصالح العام^{٤٣}.

وقد غير هذا الخطاب من أولوياته عندما انتقل إلى فلسطين وبدأ يعبر عن مرحلة أخرى من مراحل التاريخ اليهودي والصهيوني، وعلى الرغم من الاختلافات الحزبية والأيدلوجية الواسعة بين الصحف التي صدرت تحت الانتداب البريطاني إلا أن تلك الصحف أجمعت على ضوابط شكلت نوعا من الخطاب المهيمن الذي لم يكن بالإمكان المسّ به أو الانتقاص منه، هذا الخطاب الذي أجمعت عليه كل الصحف تمثل بالآتي:

1. تحديد أهداف الوجود اليهودي في فلسطين بالاستيطان وإقامة الدولة.
2. اعتبار الهجرة إلى فلسطين هدفا سياسيا يجب تحقيقه.
3. حق اليهود في امتلاك البلاد ودعوة "الأغيار" إلى الإيمان بهذا الحق وتطبيقه.
4. الدعوة لأخلاقيات الفكرة الصهيونية كالعامل العبري واللغة العبرية والاعتماد على الذات^{٤٤}.

^{٤٣} جريس، مصدر سابق، ص 40- 45

^{٤٤} كنعان، مصدر سابق، ص 44- 45

تميزت الصحافة العبرية في فترة اليشوف-أيام الانتداب البريطاني بكثر الاختلاف والصراع الجزئي، ولكنها وفي ذات الوقت عملت على "ترسيخ أقدام الدولة في محيط الشرق الاوسط، وفي دفع المصالح القومية حسب ما خططت النخبة السياسية والامنية في تلك الأيام"^{٤٥}، وقد طلب بن غوريون بصراحة من الصحافة أن تثبت إخلاصها ومسئوليتها العامة وذلك مقولة: "في هذه الساعة، نحن بحاجة لرقابة حرة ومخلصة، ولكن يجب علينا الحذر، يجب علينا أن نزن أقوالنا، وعدم إعطاء العدو معلومات أو زرع الفتنة والفوضى في شعبنا وعدم الاستسلام"^{٤٦}. هذا القول أو هذه الدعوة حددت وأطرت عمل الصحافة وخطابها في تقديم القومي على المهني و الالتزام على حساب حق الشعب في المعرفة، ولهذا فقد تميزت الصحافة العبرية تحت الانتداب البريطاني بميزات ظلت ذات تأثير قوي على الصحافة الإسرائيلية لعقود طويلة وهذه الميزات هي:

١. تطور صحافة حزبية أيولوجية عملت لتسويق سياسي وإعلامي ولا تهدف إلى الربح.
٢. ثقلي أو تبني أنماط صحافة مصدرها صحف يهودية صدرت في شرق أوروبا وغربها.
٣. إنحياز الصحف والصحافيين بصورة طوعية للجهد القومي اليهودي لإقامة دولة إسرائيل وتدعيمها والدفاع عنها^{٤٧}.

وانعكس هذا الانحياز للقومي على حساب المهني، وتقديم المصالح العليا على أية اعتبارات صحفية فيها سمي "بلجنة المحررين" التي شكلت عام 1948 وتضم رؤساء الصحف وممثلين عن الجمهور، وقد اعتاد رؤساء الوزراء والأركان والدفاع الإلتقاء بهذه اللجنة لإطلاعهم على ما يجوز وما لا يجوز، ويلتزم المحررون بعدم نشر معلومات معينة حساسة، وما تزال هذه اللجنة قائمة، وباعتبارها لجنة نخبة فوق تنافس رؤساء التحرير على دخولها وتحولت العلاقة بين هذه اللجنة وبين الحكومة إلى علاقة منافع متبادلة بحيث أن القوانين التي صدرت لتنظيم عملها صدرت بالتوافق بين الجهتين^{٤٨}.

الخطاب الصحفي العبري وقبل قيام الدولة عمل جاهدا بالإضافة إلى ما ورد سابقا من أجل ما يلي:

^{٤٥} جمال، مصدر سابق، ص49.

^{٤٦} المصدر السابق، ص49، نقلا عن - عوزيون: "يوميات حرب"، جزء أول، تل أبيب 82، ص172.

^{٤٧} يحيئيل ليمور ورافي مان، "جمع معلومات"، تل أبيب، الجامعة المفتوحة، 1997، ص35

^{٤٨} المصدر السابق، ص52، وكذلك، كنعان، مصدر سابق، ص140.

١. التأكيد على ضعف الارتباط بين الفلسطينيين وأرضه وتاريخه من خلال التشكيك برواية هذا الشعب عن نفسه وعن أرضه، و إن تلك العلاقة علاقة طارئة بلا جذور بينما علاقة اليهود بهذه هي علاقة مقدسة وسماوية.

٢. حاول هذا الخطاب إقناع الشعب الفلسطيني "بالنوايا الحسنة" لليهود من خلال إقامتهم في فلسطين واستيعاب فكرة الوطن القومي لهم عليها، وذلك من خلال الاستعانة بكتاب ومفكرين يهود يتقنون العربية^{٤٩}.

أما الخطاب الصحفي بعد قيام الدولة فقد شهد انقلابا حقيقيا بعد حرب 1967 التي منحت الإسرائيليين شعور بالقوة والرسوخ رغم رفض العرب لوجودها، وكذلك بعد حرب 1973، التي هزت الثقة في المؤسسة الحاكمة، هاتان العلامتان التاريخيتان، مع ما صاحبهما من ازدهار اقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة وانفتاح المجتمع الإسرائيلي على المجتمع الغربي وكذلك ما صاحب إصدار الصحف من كلفة عالية، دفع بالأحزاب إلى إعادة التفكير بإصدار صحف خاصة بها، ولهذا فقد ازدهرت الصحافة الخاصة والصحافة الخاصة التجارية^{٥٠}، التي مثلتها خير تمثيل الصحف الثلاثة؛ يديعوت أحرنوت ومعاريف وهآرتس. وقد تمتعت هذه الصحف بالرواج الواسع من جهة ومحاولة التعبير عن الجمهور المتعدد المنشأ واللغة والأفكار بتوازن سياسي سمح بظهور آراء مختلفة، ولكن هذه الصحف كلها ورغم توسطها بين المعسكرات المختلفة في المجتمع الإسرائيلي كانت تعبر بشكل رديء سيئ فيما يتعلق بالشعب العربي الفلسطيني بحيث تتشابه "يديعوت أحرنوت" الشعب وية بصحيفة "هآرتس" النخبوية في ذلك^{٥١}.

تتميز الصحف الثلاثة بقدرتها على المحافظة على التوازن بين مصالحها الاقتصادية باعتبارها صحفا خاصة وبين الاحتياجات السياسية والدبلوماسية للمجتمع الإسرائيلي، وأظهرت تلك الصحف كذلك درجة كبيرة من المسؤولية الاجتماعية من خلال تزويدها لجمهورها بمعلومات تتلاءم مع الثقافة السياسية المهيمنة، وبالتالي امتنعت عن توجيه النقد الجذري للسلطة، الأمر الذي يشعر الجمهور أن الصحافة الخاصة تقوم بالتغطية الوطنية والملتزمة للأخبار، وأنها غير مستعبدة أو مأسورة لمفهوم الربح المادي

^{٤٩} مصطفى كبا: "من بازل الى انتفاضة الأقصى" فصلية قضايا إسرائيلية، عدد 4، 2001، ص122.

^{٥٠} دان كاسبي: "إعلام وسياسة"، تل أبيب، الجامعة المفتوحة، 1997، ص19

^{٥١} جمال، مصدر سابق، ص55.

فقط، وتختلف هذه الصحف فيما بينها على أمور معينة ولكنها لا تتعداها إلى القضايا ذات الإجماع القومي والعالم^{٥٢}.

وقد لعبت "لجنة المحررين" دوراً كبيراً في خلق أطر وضوابط ومعايير تجعل من الصحف تشابه إلى حد كبير في تناولها للمسائل العامة^{٥٣}.

وبما أن النشاط الصحفي في إسرائيل متعدد ومختلف ما بين التجاري والديني والأمني وما يرافق ذلك من تغيرات في التركيبة الاجتماعية والأثرية، فإن الخطاب الصحفي الإسرائيلي تميز بما يلي:

١. اضمحلال الخطاب الحزبي الأيدلوجي لصالح الخطاب الشعبوي والترفيهي والاستهلاكي.
٢. الالتزام بالخطوط العريضة التي تعتمدها لجنة المحررين، الأمر الذي يبعد هذه الصحف عن نقد الخطاب السياسي المهيمن، وهذا ما يجعل الصحف الإسرائيلية بدون استثناء تُعَلِّي من الخطاب القومي والمصلحة العليا على أية اعتبارات.

٣. بسبب الرواج الكبير والرغبة في التنافس من أجل الربح، فإن هناك مجال واسع لظهور آراء وأفكار واجتهادات تعبر عن التنوع الاجتماعي في إسرائيل، مما يعطي الإحساس بأن الصحافة الإسرائيلية "ديمقراطية" بشرط أن يكون كل ذلك تحت مظلة ذلك الخطاب المهيمن الذي تحميه وتدعمه أجهزة الدولة.

٤. تشترك جميع الصحف الإسرائيلية بدون استثناء في التجند ضد مصالح وأهداف الشعب العربي الفلسطيني، وتشترك في تشويه صورته وتجريمه ورسم صورة كاريكاتورية له، وظهر ذلك باجلى صورة في انتفاضة الأقصى ولا يستثنى من ذلك صحيفة هآرتس، فقد بينت هذه الصحيفة وجهة النظر الرسمية للحكومة^{٥٤}، ولكن، تجب الإشارة أيضاً بوضوح ودقة إلى أن هذه الصحف ورغم إجماعها على خدمة الأهداف الصهيونية العليا إلا أن تحقيق تلك الغايات كان موضوع خلاف دائماً، ليس فقط بسبب الرؤيا السياسية وإنما بسبب الرؤية الأيديولوجية والدينية كذلك.

٥. أخذت الصحافة العبرية تلعب دوراً هاماً في التأثير على الحراك السياسي والاجتماعي باعتبارها مركز ثقل كبير إلى درجة أن يقول أحد الباحثين "إننا نخطو بصورة تدريجية، ولكن

^{٥٢} موشيه هنغبي: "حرية الصحافة في إسرائيل" القدس، مركز القدس لدراسات إسرائيل، 1995، ص110

^{٥٣} المصدر السابق، ص108، وكذلك جمال، مصدر سابق، ص54.

^{٥٤} دننيل دور: "صحافة تحت التأثير"، تل أبيب، بابل، 2001، ص15-20.

منهجية، نحو حكم ناشري الصحف في البلاد، إذ أن أصحاب الإعلام وعلى رأسهم دور نشر "يديعوت أحرنوت" و"معاريف" يجعلون صحفهم وسائل مساعدة في دفع مصالحهم الاقتصادية والسياسية وبهذا يصبحون جهة حاكمة ليس أقل قوة من سلطات الحكم الرسم^{٥٥}. ويفرق هذا الباحث بين دور الصحف الخاصة في إسرائيل حد يبتأ باعتبارها قوة اقتصادية سياسية تسعى إلى الربح فقط، وبين تلك الصحف التي شهدتها إسرائيل ذات يوم كما في دول العالم الحر وهو أن تكون "كلاب حراسة للديمقراطية"^{٥٦}.

٦. أبرزت الأحداث والحروب السياسات التي اتخذتها الحكومة وانعكست في الخطاب الصحفي مدى الخلافات السياسية والاجتماعية في المجتمع الإسرائيلي، وانغلاق الطوائف على ثقافتها كالروس مثلاً.

٧. ثبات أنماط صحفية على الطريقة الغربية كالتحقيق الصحفي المهني الأمر الذي أدى إلى أزمت حكومية حقيقية أدت إلى عزل وزراء أو سقوط حكومات، على الرغم من أن هذا النمط الصحفي لم يصل إلى حد المس بالسياسة العليا الإسرائيلية وخاصة صورة الجيش الإسرائيلي و أجهزته الأمنية المختلفة^{٥٧}.

إن المهنية الصحفية في إسرائيل دفع بتلك الصحف إلى التنافس على السبق الصحفي في جميع المجالات، الأمر الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى الخروج على بعض الشوايب وعلى الخط المشترك بين تلك الصحف.

ويشار هنا إلى أن هذا التنافس أدى أيضاً إلى حدوث فروق حقيقية بين توجهات الصحف ذاتها وذلك منذ اجتياح لبنان عام 1982 واندلاع الانتفاضة عام 1987 ومن ثم اتفاقية أوسلو، حيث زاو الجدل السياسي والعقائدي في المجتمع الإسرائيلي، الأمر الذي جعل من الصحف ساحات واسعة ومتعددة للتعبير من ذلك الجدل، وبهذا الصدد لا بد من الإشارة إلى صحف غردت خارج ما يسمى الإجماع القومي مثل جريدة "زو هديرخ" واسعة الانتشار التي كان يصدرها أوري أفنيري، وكذلك صحيفة "حداشوت" التي تعرضت للإغلاق أكثر من مرة بأمر عسكري.

^{٥٥} لايمان صموئيل فيلتسيغ: "البنود، المنحدر ودور النشر، يديعوت أحرنوت، ضد معاريف: ماضيا وحاضرا ومستقبلا"، كيشر، عدد 25، أيار 1999، ص14-15.

^{٥٦} المصدر السابق، ص12

^{٥٧} جمال، مصدر سابق، ص71.

إلا أن اندلاع الانتفاضة الثانية عام 2001 وما جرّت إليه من أوضاع جديدة أدى بصحف مثل هآرتس بالذات مثلاً أن تفتح صفحاتها لكتاب أصحاب جرأة عالية لأن يتخطوا خطوطاً حمراء كالمس بصورة الجيش الإسرائيلي وقيم المجتمع الإسرائيلي وأهداف الصهيونية ذاتها، كما فعل جدعون ليفي وعميرة هاس، وهو ما سنشير إليه بالتفصيل في الفصول القادمة.

الخطاب الصحفي الإسرائيلي بعد قيام الدولة تميز من جهة بما يلي:-

١. غياب الصحافة الحزبية، وخاصة بعد سنوات الثمانينات إلا أن صحفاً مثل دافار وعلهمشمار وهما صحيفتان حزبيتان واصلتا الصدور حتى بداية التسعينيات.

٢. ظهور وانتشار الصحافة التجارية والخاصة.

٣. تركيز ملكية وسائل الإعلام وخاصة الصحف بأي دي قلة قليلة فتحت الباب واسعاً للمنافسة التجارية.

٤. ظهور الصحف المنطوقية بسبب التغيرات السريعة في ال بنية والتركيب الاثري والاجتماعي الإسرائيلي.

٥. الإنتشار السريع الكبير للصحافة الدينية على اختلاف توجهاتها.

٦. ظهور صحافة إسرائيلية بلغات غير عبرية كالروسية والإنكليزية.

وتميز هذا الخطاب من جهة أخرى بأنه متعدد وخصب ولكنه متشابه إلى حد كبير عندما يتعلق الأمر بالشعب الفلسطيني والمسائل القومية العليا.

الفصل الثاني

أشرت في الفصل الأول الى تغير ملكيه وسائل الإعلام الاسرائيلي وانتقالها الى ملكيات خاصة، وكذلك أشرت الى اختفاء او تضائل دور الصحافة الحزبية الى حد كبير. ان هذا الوضع الجديد أدى الى تغير المضامين التي عبرت وتعبّر عنها تلك الوسائل ولكن ذلك لم يؤدّ الى تغير في تعامل تلك الوسائل مع الشأن الفلسطيني من جهة، والصراع العربي الاسرائيلي من جهة أخرى، اذ ان اسرائيل وبعد مضي 58 عاما على قيامها فما تزال تشعر "بالخطر الوجودي"¹ وعدم قبولها في المنطقة" من جهة أخرى ان هذا الوضع بالذات هو ما يجعل وسائل الإعلام الاسرائيلي على رغم انتقال الملكية وتغير السوق وتغير اهتمامات الجمهور إلا انها (تلك الوسائل) تتصرف طيلة الوقت او معظمه على انها في حالة حرب طويلة ومستمرة ولا حلول سريعة لها، ولهذا فان استراتيجيات العمل الإعلامي الاسرائيلي ما تزال هي هي لم تتغير الى حد كبير (باختلاف الزمن او الظروف او الشروط السياسية). ان اقتصاد السوق والانفتاح على الآخر وتشابك العلاقات الاقتصادية في مجال الاعلام الاسرائيلي والعالمية لم يبلغ حالة الحرب ولم يحقق الشعور بالأمن والأمان والحياة والاستقرار للإسرائيلي العادي. واذا أضفنا الى تلك التغيرات السياسية والعقائدية والحزبية في اسرائيل وتحركها باتجاه اليمين واليمين المتطرف الديني فان النظرة النمطية للفلسطيني وللصراع نفسه تزداد تعمقا وتجزراً وتلعب الصحافة الخاصة لهذا السبب بالذات دورا في ذلك، إذ ان هدف الصحافة الخاصة في نهاية الأمر هو الربح والرواج، كما ان الحدود الأثنية والاجتماعية في اسرائيل تؤدي ايضا الى تسابق تلك الأثنيات في تقديم "صورة نمطية اكثر دقة في وصف الفلسطيني"².

وفي انتفاضة الأقصى بالذات التي اعتبرت إسرائيليا "حربا على البيت" وأنها تشبه "حرب الاستقلال عام 48"³، فقد تجندت الصحافة الاسرائيلية بكامل أطرافها من اجل بلورة موقف موحد وعام تجلّى في عدم نقد الحكومة الاسرائيلية من جهة، وفي وصف الفلسطيني بالإرهابي من جهة أخرى، وفي توحيد

¹ محمد حمزة ، وجهاً لوجه، سجلات مع مثقفين يهود"، رام الله، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2001، ص129، والكلام للبروفسور باروخ كمرلنج.

² المصدر السابق، ص. 133.

³ تعبيران استخدمتا بكثرة في الصحافة الاسرائيلية لوصف الانتفاضة.

صفوف الجمهور من طرف وفي كسب الرأي العالمي من طرف آخر، وفي تصليب الموقف الاسرائيلي وتدعيمه من جانب وفي زعزعة مقولات الفلسطينيين من جانب آخر.

ويمكن القول هنا ان الصحافة - على رغم انها خاصة في معظمها- إلا انها قامت بدورها تماما وكأنها صحف قومية او حزبية بامتياز - باستثناءات قليلة سنشير اليها في حينها - لقد تعاملت الصحافة الاسرائيلية مع انتفاضة الأقصى- وبالذات في عملية السور الواقعي وهي هدف هذا البحث- على انها حرب حقيقية، وتصرفت تلك الصحافة على انها صحافة حرب. واستخدمت كافة الأساليب الحرب النفسية العسكرية التي تستخدمها الحكومات أثناء الحرب، ولهذا فان الصحافة الاسرائيلية استخدمت " العمليات النفسية الاستراتيجية والعملياتية والتماسكية" ⁴ بدون استثناء وتمثلت في عمليات " الكذب والتشويه والتحريف والخداع" ⁵ خلال تغطياتها الصحفية، كذلك استخدمت كل عمليات الحرب النفسية الخاصة بالتحقير والإهانة والتحرش واستغلال كل ما من شأنه إثارة الفتنة والخلافات الداخلية في صفوف الخصم.

وعليه فانه لا يمكن التفريق بين صحافة خاصة او صحافة حكومية في اسرائيل وخاصة أثناء الفترات التي يشهد فيها التوتر ليصل الى حد المواجهات، إذ تنطبق الرغبات والأوامر الرسمية الحاكمة مع سياسات وتوجهات الصحافة الى درجة لا يمكن معها التفريق بين الروايتين، ففي النهاية ليس هناك من اختلاف في جوهر وهدف الاحتلال، وليس هناك أيضا خلاف في الدعاوى الاسرائيلية بين النخب المسيطرة في اسرائيل على اختلافها.

ان الأصوات التي تغرد خارج السرب ضد هذا التيار العريض والمسيطر هي اصوات قليلة وتعرض الى انتقادات شديدة من الإسرائيليين أنفسهم.

وإذا كانت الحكومة الاسرائيلية لا تمتلك وسائل إعلامية خاصة بها، إلا ان الصحافة الخاصة تقدم ما عليها من خضوع وانصياع لرؤية الحكومة ليس فقط من اجل الاستمرار والقبول وتبادل المنافع فقط وإنما ايضا من منطلق الإيمان بمنطلقات الحكومة وتوجهاتها.

⁴ د. ذياب البداينة " الأمن وحرب المعلومات"، عمان، دار الشروق، ص 233-234.

⁵ المصدر السابق، ص 235.

سلطة الإعلام الإسرائيلي على الحياة السياسية والاقتصادية:

يشير يحيئيل ليمور، المحاضر في قسم الإعلام بالجامعة العبرية إلى انقلاب جوهرى في بنية الإعلام الإسرائيلي في سنوات التسعينات وحتى هذه اللحظة، وقد أرجع السبب في ذلك إلى انتقال ملكية وسائل الإعلام هذه إلى الملكية الخاصة⁽¹⁾، وذلك على غرار باقي القطاعات الاقتصادية في إسرائيل التي تشهد عمليات خصخصة متسارعة.

فيما يعيد د. أمل جمال أسباب هذا الانقلاب الكبير إلى التنامي المستمر في الاحتياجات الإعلامية وتطور سوق عالمي مبني على التنافس الدولي، الأمر الذي أدى إلى تكيف القطاع الصحفي بسرعة مع هذه التطورات، بسبب عدم وجود احتكار حكومي للصحافة المكتوبة بالذات ولوجود صحف خاصة قبل قيام الدولة⁽²⁾.

ويشير د. جمال بشكل خاص إلى تقرير لجنة "بيليد" التي أوصت بالعمل بسياسة "الأثير المفتوح"⁽³⁾، التي سمحت بتصاعد تأثير نخبة رؤوس الأموال على السياسة والسياسات في إسرائيل. هذا الأمر بالذات هو ما ميّز التطورات البنوية في صناعة الإعلام الجماهيري في إسرائيل التي برزت في خمس ظواهر رئيسة هي⁽⁴⁾:

الأولى: ضعف مؤسسات الإعلام الرسمية وتنامي نفوذ المؤسسات الخاصة:

برزت في سنوات الثمانينات والتسعينات شواهد ملموسة على ازدياد الصناعة الإعلامية الجماهيرية والمنفردة عنها كالنشر والدعاية والعلاقات العامة، وقد ظهرت مئات الصحف -غالبيتها محلية- والمجلات بالإضافة إلى محطات التلفزة والإذاعة. هذه الوسائل المختلفة خضعت بالكامل لملكية خاصة أو أُديرَت بواسطة أصحاب امتيازات من القطاع الخاص، أما القاسم المشترك بين جميع تلك

(1) يحيئيل ليمور "صناعة الإعلام في إسرائيل في عصر المتغيرات"، قضايا إسرائيلية، عدد (11، 12)، رام الله، مدار، 2003، ص(128)

(2) د. جمال، مصدر سابق، ص (238)

(3) شكلت عام 1997 وقدمت تقريرها إلى وزير الاتصالات حينذاك ليمور ليفانت، وأوصت بتوسيع الشبكات القطاعية وتوسيع شبكة البث للجمهور في إسرائيل من خلال إقامة خمس قنوات تشمل قناة أخبار وقناة عربية وقناة بالروسية وللمتدينين وللموسيقى، وأوصت اللجنة بأن تمول هذه القنوات من خلال الإعلانات التجارية، وأشارت اللجنة إلى وجوب العمل بسياسة "السماء المفتوحة"، وبهذا نقلت هذه اللجنة الاعلام إلى الحيز التجاري. (جمال، ص193)

(4) ليمور، مصدر سابق، ص (129)

المؤسسات فهو الدافع التجاري الربحي، "صحيح أنها مؤسسات إعلامية تقدم خدمة حيوية للجمهور، لكنها أيضاً، وربما أولاً وقبل كل شيء، مشاريع تجارية تهدف إلى جني الأرباح لحساب أصحابها"⁽⁵⁾. هذا الواقع الجديد أدى إلى ما يلي:

أ. ضعفت أو تحجمت أدوار المؤسسات الإعلامية التي توجهها أهداف الخدمة العامة، كان الضعف أو التحجيم يمس بالقيمة والتقدير الجماهيري.

ب. اختصار أو تلاشي دور الصحافة الحزبية.

ت. بسبب عدم قدرة الصحافة المرتبطة بالمؤسسة الحكومية على الاستفادة من عمليات النمو والتطور، فإن المؤسسات الخاصة استفادت من مرونة وتكيف القطاع الخاص في الاستفادة من التكنولوجيا الجديدة في تخفيض الأسعار وزيادة الإنتاج والتنوع فيه الأمر الذي أدى إلى انتشارها وريحتها⁽⁶⁾.

تنامي قوة المؤسسات الإعلامية الخاصة -الذي يعني ازدياد الربح أيضاً- أدت إلى فصل بين الإدارة الاقتصادية للمؤسسة الإعلامية وبين ادارتها الفنية، بمعنى آخر "أدى ذلك إلى إقصاء الإعلاميين المهنيين ذوي التجربة والخبرة في مضمار العمل الإعلامي عن قمة الهرم التنظيمي واستبداله برجال أعمال واقتصاد، كل ما يهمهم هو المردود المالي"⁽⁷⁾.

الثانية: ظهور الشركات وتمركز السلطة:

كما ذكرت سابقاً، فإن في إسرائيل ثلاث شركات إعلامية كبرى تخضع كل منها لملكية و/ أو سيطرة عائلة واحدة، وهناك بوادر إلى ظهور شركات إضافية وإن كانت بحجم أصغر.

إن تعاضم الشركات وتمركز السيطرة على سوق الإعلام في أيدي القطاع الخاص يمكن أن يقلص التشكيلة المعروضة للجمهور الواسع في "السوق الحرة للأراء"⁽⁸⁾، الأمر الذي يمس بالنظرية الديمقراطية، فالعدد الكبير من الصحف ووسائل الإعلام الأخرى وخضوعها لسيطرة عدد قليل من

(5) المصدر السابق، ص (129)

(6) المصدر السابق، ص (129)

(7) المصدر السابق، ص (130)

(8) المصدر السابق، ص (132)

المالكين سيؤدي بالضرورة إلى تجانس متزايد ومضطرد في المضامين والقيم السياسية⁽⁹⁾. وبالإضافة إلى تجانس المضامين والاتجاهات فإن لذلك أيضاً أبعاد اقتصادية هي:

أ. الحد من المنافسة الحرة: بسبب تراكم رأس المال الذي يؤدي إلى نشوء شركات أكبر، تتمتع بنفوذ يفوق نفوذ الشركات الصغيرة، وهو ما يحد من المنافسة بين المنتجين ويولد عدم مساواة في القوى بين المستهلكين والمنتجين والتي تضعف بدورها أفضليات أو مزايا اقتصاد السوق، بمعنى آخر، فإن السوق لا يوجد نفسه كما هو المفترض⁽¹⁰⁾.

ب. تحديد سعر السلعة: يشير الباحث ليمور إلى أنه لا دليل رسمي موثق على تنسيق في الأسعار بين الصحف الثلاثة، ولكن تظهر الحالات التي جرى فيها رفع أسعار الصحف أن ذلك تم بالتوازي وفي الوقت ذاته⁽¹¹⁾.

ت. تأثير ذلك على جودة السلعة: البحث المحموم عن أوسع جمهور ممكن أن يؤدي إلى هبوط عام في المعايير الصحفية.

ث. الثمن المرتفع "لتذكرة الدخول" إلى اللعبة: تركز السلطة في أيدي نخبة قليلة، سيزيد من الصعوبات التي تواجه من يرغب في الانضمام إلى هذه النخبة، فالاستثمارات المرتبطة بإقامة مؤسسة إعلامية منافسة جديدة، ستكون باهظة جداً، الأمر الذي يؤدي إلى إعاقة دخول منافسين جدد إلى السوق، وفشل صحيفة "حداشوت" خير مثال على ذلك⁽¹²⁾.

ج. بيع جمهور للناشرين بدلاً من بيع برامج للجمهور: بما أن الإعلانات هي مصدر الدخل الرئيسي -وأحياناً الوحيد- للمؤسسات الإعلامية الخاصة، وبما أن المنافسة بين تلك المؤسسات تؤدي إلى تغيير المفهوم الأساسي الذي تتحدد بناءً عليه سياسة المؤسسة في مجال

(9) ليمور، مصدر سابق، ص132، نقلاً عن Bagdokian, B. "Media Monopoly", Boston, Beacon Press, 1992

(10) ليمور، مصدر سابق، ص (132)

(11) المصدر السابق، ص (133)

(12) المصدر السابق، ص (133)

النشر والبيث، فإن النتيجة هي أن بيع الجمهور للناشرين يحظى بأولوية على بيع المنتج الإعلامي ومضامينه للجمهور⁽¹³⁾.

ح. ليذهب المضمون إلى الجحيم، المهم التسويق: أصبحت الصحف -كما في التلفزيون- تميل إلى الاستخدام المتزايد للعناوين والزخرفات الجرافكية اللافتة للأنظار على حساب النص، صار الشكل أهم من المضمون⁽¹⁴⁾.

الثالثة: اختفاء الاحتكارات وظهور الطعم:

والمقصود بذلك انفتاح السوق أمام وسائل الإعلام وتحول مالكيها إلى متنافسين، الأمر الذي يؤدي بالجميع إلى دخول لعبة المنافسة وما تفرضه من شروط على السلعة وجودتها وسعرها، ما دام الجميع يعمل تحت ذات الظروف المتشابهة، وهو ما يبديل مفهوم الاحتكار إلى مفهوم الطغمة⁽¹⁵⁾.

الرابعة: تسلل رؤوس الأموال الأجنبية وتمدد الإعلام الإسرائيلي إلى الخارج:

في أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات أخذت رؤوس الأموال الأجنبية تتسلل إلى إسرائيل، وقد جرى ذلك بالتوازي عبر قنوات عدة، حيث قامت مجموعة "هولينغز" الإعلامية الدولية في العام 1989 بشراء يومية "جرزالم بوست" التي تصدر باللغة الانجليزية، وقام امبراطور الاعلام البريطاني روبرت ماكسويل في العام 1991 باستكمال شراء حقوق الملكية الكاملة لصحيفة "معاريف" اليومية، وقدم امبراطور الإعلام الاسترالي الأميركي روبرت مارдох التمويل الأولي اللازم لتأسيس صحيفة محلية في تل أبيب، ومولت شركة الاستثمارات الألمانية "كورتسبرغ" إقامة محطة الإذاعة الخاصة "راديو 1"، وفتحت شبكة محلات الفيديو الأميركية "بلوك ماستر" في العام 1995 فروعاً لها في المدن الإسرائيلية الكبرى، ودخلت شركة الاستثمارات الأميركية "شمروك" كشريك في شركة التلفزيون بالكوابل "متاف" وكذلك في شركة "كومبي" للأفلام، كما دخلت شركات أجنبية أخرى كشريك في شركات تنافست وفازت

⁽¹³⁾ ليمور نقلاً عن Curran, J. "The Impact of Advertisement on the British Mass Media" in: R. Collins et al (eds), Media, Culture and Society, London: Sage, 1986, pp: 309- 335

⁽¹⁴⁾ ليمور، المصدر السابق، ص (134)

⁽¹⁵⁾ المصدر السابق، ص(134 135)

بالحصول على امتيازات لتشغيل محطات تلفزة بالكوابل أو في الشركات التي تنافست على امتيازات تشغيل القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي⁽¹⁶⁾.

ويمكن تعليل الاستثمارات الأجنبية في إسرائيل بحقيقة أن المستثمرين الأجانب قد أدركوا الطاقة الكامنة في سوق الإعلام الإسرائيلي لتحقيق أرباح كبرى، ففي العام 1995، وجد في إسرائيل 15 شركة كبرى عالمية انخرطت في السوق الإعلامي الإسرائيلي وخاصة في مجال النشر والدعاية، إما عن طريق الشركات المباشرة أو من خلال ارتباطات وتعاقبات استراتيجية مع شركات دعاية ونشر إسرائيلية، ومن أهم تلك الشركات: "ولتر تومبسون"، "ماك كان أريكسون"، "دي. دي. بي نيدهام" و"لينتاس"⁽¹⁷⁾. وبالمقابل فقد شهدت صناعة الإعلام في إسرائيل تجنيد أموال أجنبية عن طريق طرح أسهمها للتداول في سوق الأوراق المالية في نيويورك كما فعلت صحيفة "تلغراف" الاقتصادية وشركة "أريئيلي" للنشر، إلى ذلك أيضاً، قامت صناعة الإعلام الإسرائيلي بتصدير رأس المال والخبرة المتراكمين لديها إلى الخارج، كما فعلت شركة "متاف" بتشغيل أنظمة القنوات التلفزيونية بالكوابل في إسبانيا. إن مثل هذا النشاط الذي لم يكن في الماضي إنما "هو نتاج طبيعي لتبلور التوجهات الربحية لدى المجموعات والشركات الإعلامية الإسرائيلية، كما أنها تعكس الحاجة للبحث عن آفاق وقنوات استثمار جديدة"⁽¹⁸⁾.

الخامسة: انحسار تقاليد الصحافة العائلية:

يشير الباحث ي. ليمور إلى أن ملكية العائلات الثلاثة للصحف الكبرى في إسرائيل بدأت بالتصدع وذلك من خلال طرح أسهم بعض تلك الصحف في سوق الأوراق المالية في تل أبيب، كما لاحت في الأفق بوادر انتقال تدريجي إلى وضع أصبحت فيه المؤسسات الإعلامية، ولا سيما الصحافة المطبوعة، تخضع لسيطرة مجموعات واتحادات اقتصادية كبرى، الكثير منها اتحادات عامة. ففي العام 1992 تم شراء صحيفة معاريف من قبل شركة "هخشرات هيشوف" التي يتم تداول أسهمها في البورصة بتل أبيب، وبعد فترة وجيزة من بيع الصحيفة جرى أيضاً طرح 30% من أسهمها للتداول في

⁽¹⁶⁾ د. لحمان- مسار، "خارطة الاعلام الجديدة- الهيكلية والملكية، التحديات والمخاطر"، معهد الاتصالات، الجامعة العبرية، القدس، 1992. ص(65).

⁽¹⁷⁾ المصدر السابق، ص (67- 70)

⁽¹⁸⁾ المصدر السابق، ص(72)

البورصة أيضاً، صحيح أن الملكية الكاملة للصحيفة وكذلك الحال بالنسبة لشركتها الأم ما تزال بأيدي عائلة نمرودي، لكن طرح الصحيفة للتداول في السوق، جعلها ولو بصورة جزئية ذات شفافية، نظراً لأنه صار من المترتب عليها تقديم تقارير دورية إلى سوق الأوراق المالية، وهو الحال الذي وصلت إليه صحيفة "تلغراف" الاقتصادية، وهناك بوادر تشير إلى ذلك في صحيفتي يديعوت أحرونوت وهآرتس⁽¹⁹⁾.

الأسباب التي تقف وراء هذا التصدع في الملكية تعود إلى الحاجة إلى تجنيد رؤوس أموال لتمويل النشاطات الجارية وبالأخص من أجل شراء معدات وتجهيزات عصرية، وكذلك تقديم عروض مغرية من جانب الاتحادات والشركات الكثيرة التي تسعى إلى ابتلاع المتنافسين الصغار، إضافة إلى الخلافات والنزاعات داخل العائلة الملكة "وهو ما يحدث عادة في الجيل الثالث والرابع"⁽²⁰⁾.

⁽¹⁹⁾ المصدر السابق، ص(138)

⁽²⁰⁾ المصدر السابق، ص(138)

واقع جديد:

هذا الاختلاط أو المزج بين المؤسسة الاقتصادية والمؤسسة الإعلامية أدى إلى ظهور واقع جديد، أو ظاهرة جديدة تتمثل في إشغال مجموعة صغيرة ومقلصة من المديرين تشغل أماكن أو عضوية مجال إدارة مؤسسات اقتصادية ومؤسسات إعلامية في ذات الوقت. وتزداد هذه الظاهرة حدة بمقدار ما تعمق الشركات الاقتصادية (كالبنوك أو صناعة المواد الاستهلاكية) من دخولها إلى أعمال الاعلام وبمقدار تعزيزها لنفوذها في صناعة الاعلام، هذه الظاهرة الناشئة عن "الملكية المتقاطعة" تؤدي إلى ما يسمى "بالإدارة المتقاطعة"⁽²¹⁾، حيث يتوزع ولاء المدير -الذي يشغل موقعين في ادارتين مختلفتين- ما بين المؤسسة الاقتصادية التي تهدف إلى الربح أولاً وأخيراً، وبين المؤسسة الإعلامية التي من المفروض أن تلتزم بالمسؤولية الاجتماعية، بمعنى آخر، هل يكون ولاء هذا المدير للمؤسسة التي تقوم بالتغطية الإعلامية أم للمؤسسة التي تتناولها عملية التغطية!!

هذا الواقع الجديد في الصناعة الاعلامية الإسرائيلية، كما يلحظ في مجلس إدارة "معاريف" ومحطة القناة الثانية في إسرائيل وغيرها من المؤسسات الصحفية، أدى إلى قيام المؤسسة السياسية والتشريعية إلى الحد ولو جزئياً من الملكية المتقاطعة لوسائل الإعلام، وقد تم بناء على ذلك تقنين نسب الملكية للصحف اليومية (24% فقط) في الشركات الخاصة على امتياز تشغيل القناة الثانية أو تشغيل محطة تلفزة بالكوابل، إلا أنه لم يحسم بعد الأمر بشأن "الإدارة المتقاطعة"⁽²²⁾.

العوامل الاقتصادية وتأثيرها على الخطاب الإعلامي:

التغيرات البنوية العميقة والأهداف الربحية للمؤسسات الإعلامية وكثرة الجهات التجارية التي دخلت إلى صناعة الإعلام الإسرائيلي خلقت واقعاً جديداً "يلفه الغموض"⁽²³⁾، إذ أن مستهلك السلعة الاعلامية "يجهل في الواقع ما يختبئ خلف الصحيفة ومحطة الراديو أو التلفزيون التي يتعرض لتأثيرها طوال ساعات عديدة يومياً"⁽²⁴⁾، وهو لا يدرك حقيقة الأهداف الاقتصادية التي قد لا تتلاءم بشكل تام أو على الدوام مع القيم الصحفية وقواعد المهنة التي يفترض أن توجه المؤسسات الاعلامية. "إن مستهلك

(21) المصدر السابق، ص (139)

(22) المصدر السابق، ص (139)

(23) المصدر السابق، ص (140)

(24) المصدر السابق، ص (140)

الاعلام الصغير الذي كان من المفروض أن يكون الأمير الذي يعمل الإعلام الجماهيري في خدمته، قد يجد نفسه يقف عاجزاً ودون خيار إزاء ما يقرأ وما يشاهد، فالتخوف لا يتأتى من "الأخ الكبير" الذي يستخدم وسائل الاعلام لتحقيق مصالح سياسية، وإنما بالذات من كون وسائل الإعلام ذاتها التي تحولت إلى ما يشبه "الأخ الكبير" الذي تحركه اعتبارات ومصالح خفية أو غامضة"⁽²⁵⁾.

هذا الواقع، الذي يشهد صلة وثيقة بين الاعلام والسياسة، إذ أن السيطرة على وسائل الإعلام تمنح عدداً قليلاً من الأشخاص تأثيراً كبيراً على المجالات الاقتصادية والسياسية، يجعل من تلك النخبة الصغيرة تسيطر على المضامين بحيث تصمم رأي الجمهور كما تريد تماماً⁽²⁶⁾. وبسبب العلاقة المضطربة بين الحكومة وبين تلك المؤسسات الخاصة فإن هناك مساومات بين شركات الإعلام التجارية والحكومة، مما يؤكد المحاولات الدائمة لهذه الشركات للتأثير على السياسة والتحكم فيها"⁽²⁷⁾. ويشير الأستاذ الدكتور عزيز حيدر إلى أن "الانتماء للشبكات العالمية الذي يعكس الموقف الما- بعد صهيوني يفكك التماسك الجماعي، والشعور بالاستمرارية التاريخية القومية والايمان بمعان وغايات سامية للوجود الجماعي ويبدلها بروايات تاريخية عديدة ومختلفة، هذا الانتماء الما- بعد صهيوني، الليبرالي، يعبر عن هوية فردانية، أنية، استهلاكية، غايتها تحصيل المتعة، مخالفة للهوية القومية، المجتمعة، المجنّدة، النقشفية والموحدة"⁽²⁸⁾.

ويشير د. عزيز إلى أن عملية الخصخصة والليبرالية الاجتماعية والثقافية أدت فيما أدت إليه إلى "ظهور الخطاب السياسي التلفزيوني وعشرات القنوات الفضائية الخارجية وتحول الصحافة من حزبية إلى تجارية ومحلية ومهنية وهيمنة دور النشر الخاصة على الأيديولوجية"⁽²⁹⁾. عمليات الخصخصة التي تسارعت وتيرتها منذ أواسط الثمانينات، انعكست سريعاً في قطاع الاعلام وخاصة بعد تقرير لجنة بيليد التي أوصت بالعمل بسياسة الأثير المفتوح، ومنذ ذلك الوقت بدا واضحاً تصاعد تأثير نخبة رؤوس الأموال في السياسة والسياسيين الإسرائيليين، "الأمر الذي انعكس في احتدام

⁽²⁵⁾ المصدر السابق، ص(140)

⁽²⁶⁾ د. جمال، مصدر سابق، ص (239)

⁽²⁷⁾ المصدر السابق، ص(240)

⁽²⁸⁾ د. عزيز حيدر، "التطورات الاقتصادية والحراك السياسي في إسرائيل"، رام الله، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2005، ص(54).

⁽²⁹⁾ المصدر السابق، ص54.

التنافس بشأن مراكز القوة المسيطرة التي تُكسبُ تأثيراً في مجال السياسة وتقرر طبيعة عملية الخصخصة"⁽³⁰⁾.

وعلى هذه الخلفية، فإن تحليل الخطاب الإعلامي في إسرائيل يظهر بجلاء شديد الصلة الوثيقة بين النخبة الاقتصادية والعسكرية والسياسية والإعلامية، وفي كتابها الهام أشارت حافا عتسيوني إلى تلك العلاقات الوطيدة والمتبادلة بين تلك النخب، وهي علاقات لا تقتصر على البعد الاقتصادي وإنما على البعد الاجتماعي أيضاً، وفي كتابها هذا تبدو إسرائيل وكأنها تدار من قبل مجموعات محددة بسبب ما يربطها من علاقات وتفاعلات، وخاصة فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني⁽³¹⁾.

هذا الموضوع بالذات كان محور بحث آخر لاسحق روعيه الذي أظهر بجلاء هيمنة الخطاب الصهيوني على ثقافة المؤسسة الإسرائيلية برمتها، مشيراً في الوقت ذاته إلى عدم وجود متنافسين جديين لهذا الخطاب المهيمن بين مؤسسات الإعلام العاملة في إسرائيل⁽³²⁾.

العلاقة الوثيقة بين النخب السياسية والإعلامية والعسكرية والاقتصادية وجدت تعبيرها الأقوى في ذروة انتفاضة الأقصى في العام 2002، إذ ارتفع مستوى التنسيق ما بين جيش الاحتلال ووحدته الإعلامية وبين محرري الصحف والمحطات الإذاعية والتلفزيونية ارتفاعاً ملحوظاً، وبات واضحاً أنه كلما ازدادت سياسة القمع الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة ازدادت نسبة خضوع محرري الأخبار لاملءات الجيش⁽³³⁾.

تجب الإشارة إلى أن خضوع أو فرض الخطاب الإعلامي على المؤسسات الإعلامية الإسرائيلية لا يتم باستخدام أدوات قهرية، "إذ ليس من الصواب الادعاء أن المؤسسة السياسية تفرض رغبتها في السيطرة بشكل مباشر على وسائل الإعلام العامة في إسرائيل، فمجال حرية التعبير في إسرائيل يتسع لآراء متعددة"⁽³⁴⁾.

فالمؤسسات الإعلامية تستسلم لهذا الخطاب بشكل إرادي بسبب الشعور الجمعي بالحصار وبأن الدولة تعيش في خطر دائم وكذلك بسبب أن فكرة الصهيونية فكرة مقبولة لدى معظم الجمهور الاسرائيلين، بالإضافة إلى أن الجمهور الإسرائيلي يعتقد أن دولته ستمنع عنه كارثة شبيهة بكارثة المحرقة

(30) د. أمل جمال. "الصحافة والاعلام". دليل إسرائيل عام 2004، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2004، ص(428).

(31) د. حافا عتسيوني- هليفي، "صلة النخبة والديموقراطية في إسرائيل" تل أبيب، سفريات بوعاليم، 1993، ص (125- 126)

(32) اسحق روعيه. "سبعة مستهلات للتمتع في الاعلام والصحافة" بن يهودا، ريخس، 1994. ص (62-70)

(33) صحيفة هآرتس، العدد الصادر بتاريخ 2002/3/18.

(34) د. جمال، دليل إسرائيل عام 2001، ص (431)

النازية⁽³⁵⁾، كما أن اخلاص الصحفيين لهذا الخطاب المهيمن يأتي من حقيقة أن الصحفيين أنفسهم ينتمون إلى ذات الخلفية الاجتماعية والاقتصادية التي تنتمي إليها النخب السياسية. أما السبب الأخير لهذا الانصياع فهو سبب اقتصادي مباشر، فأصحاب وسائل الإعلام هم على الأغلب يهود إسرائيليين عاملون في الحلبة الاقتصادية، ويشكل الاستقرار السياسي والأمني ضماناً للازدهار الاقتصادي للإعلام، وفي هذا توجد مصلحة مشتركة للنخبة الفعالة في خلق جو استقرار يُمكن أصحاب رؤوس الأموال من إدارة أعمالهم، ويُمكن في الوقت ذاته النخبة السياسية من المحافظة على موقعها كأن كل شيء يجري على ما يرام⁽³⁶⁾.

وتلخص هذه العلاقة بالقول "تزداد النخبة السياسية المهيمنة البنية التحتية القانونية لاستثمار رؤوس أموال في مجال الإعلام، والإعلام يزود في المقابل الإطار المعبر عن إخلاصه للخطاب السياسي الرسمي"⁽³⁷⁾.

وعليه، فإن ما تبدو عليه وسائل الإعلام من استقلال وحرية لا يعدو في الحقيقة عن كونه "جزءاً من الثقافة السياسية التي تدمج المعلومات في الترفيه كي تجعل الإعلام منبراً يتصارع بشأنه الممثلون السياسيون، وكأن الإعلام ليس جهة من جهات الموضوع، فالنقد الذاتي هو جزء من منظور أوسع خاضع لقواعد اللعبة الاقتصادية والسياسية، والتي تتيح نقداً ذاتياً كجزء لا يتجزأ من استراتيجية البقاء"⁽³⁸⁾.

إن تحكم هذه النخب في مضامين الإعلام ووسائله أيضاً، التي أطلق عليها الباحث الإسرائيلي غابي فايم "طبقة أشرف الإعلام"⁽³⁹⁾، يجعل منها طبقة مغلقة لا يمكن الانضمام إليها بحسب النسب أو ثروة مادية أو روحانية، بل هي طبقة مركبة بحسب مقاييس الرواج الإعلامي، وقد تعلمت النخب التقليدية أن تخضع لشروط طبقة الأشراف بسرعة، حتى يتمكن الطرفان بهذا الطريقة، الحفاظ على المواقع من جهة واستمرارية الربح من جهة أخرى⁽⁴⁰⁾.

(35) محمد حمزة غنايم، "وجهاً لوجه، سجلات مع متقنين يهود"، رام الله، مدار، 2001، ص (259-264)، وفي هذا الكتاب يتحدث الكاتب توم سيغف عن مخاطر الدولة، وللكتاب المذكور كتاب بالعبرية بعنوان "المليون السابع" صادر عن دار كيتر في تل أبيب عام 1992 وهو بالعبرية وفيه يتحدث عن فكرة الحصار التي توحد الجمهور.

(36) د. جمال، دليل، ص (432)

(37) المصدر السابق، ص (432)

(38) المصدر السابق، ص (433)

(39) غابي فايم "موقد السخافات"، كيشر، عدد 25، نيسان 1999، ص 98-104.

(40) المصدر السابق، ص (98-104)

آليات الإعلام الإسرائيلي زمن الحرب؛ كيفيات الكلام وكيفيات الصمت:

من المؤكد أن إسرائيل، دولة ومجتمعاً، تعاني الكثير من القضايا الشائكة والخلافية، وإذا كانت المشكلة الأمنية هي الأكثر أهمية إلا أن هناك قضايا أخرى توازيها في الأهمية، وقد انعكس هذا الجدل في لغة الخطاب الإعلامي بأساليب مختلفة حسب الظرف التاريخي السائد. ولأن موضوع البحث يتناول علاقة هذا الخطاب بالموضوع الفلسطيني في مدة محددة، فإننا سنكتفي بالإشارة السريعة إلى قضايا أخرى على أن نسلط الأضواء على كيفية معالجة الموضوع الفلسطيني في الصحافة الإسرائيلية خلال مدة البحث.

إن معالجة القضية الشائكة في الصحافة تتطلب قواعد وأخلاقيات حددتها جمعية رؤساء تحرير الصحف الأمريكية بالمسؤولية والحرية والاستقلالية والصدق والأمانة وعدم الانحياز الصحفي وكتابة القصة الخبرية بإنصاف⁽⁴¹⁾، وما كانت هذه القواعد التي تم تبنيها عملياً من قبل معظم المحررين في الدول الديمقراطية إلا لأن القضية الخلافية -في الصحافة بالذات- تحتاج إلى صدق في نقل الحدث وعدم الانحياز لأي طرف من الأطراف ومن ثم اعطاء ذوي العلاقة نفس المساحة والحق في التعبير عن آرائهم. وبالنسبة للوضع في إسرائيل فإن ذلك يبدو صحيحاً من جهة وغير صحيح من جهة أخرى، وستعرض في الفصول القادمة لذلك بدقة من خلال الأمثلة، فالصحافة في إسرائيل ذات تعددية تعبيراً عن تعددية سياسية وأيديولوجية واثنوية، وهي بالتالي تستطيع أن تتعرض للمسائل الحساسة والشائكة بكثير من الدقة والأمانة، ولكنها في ذات الوقت مجندة في قضايا أخرى كالموضوع الفلسطيني وخاصة في أوقات الحروب والاشتباك، بكلمات أخرى، فإن الإعلام الإسرائيلي لا يصمت عادة إلا عندما يتعلق الأمر بالأمن والموضوع الفلسطيني عموماً، والصمت المقصود هنا هو صمت يتعلق بالتنشويه والكذب والدس والتحريف واستعمال لغة خاصة، وهو ما سنتعرض له بالتفصيل في الفصول القادمة. وفي انتفاضة الأقصى، عملت وسائل الإعلام الصهيوني على معالجة هذه الانتفاضة بطرق استطاعت من خلالها أن تسجل إخفاقات معينة ولكنها سجلت أيضاً نجاحات يشار إليها.

(41) جون ل. هاتلنج "أخلاقيات الصحافة" ترجمة كمال عبد الرؤوف، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993، ص (137)-

وفي تقرير نشرته صحيفة معاريف أعده كلٌّ من بينيف زار وميراف دافيد وأمير مروم وإيلي شحار، أشار إلى أن صورة إسرائيل تدهورت خلال انتفاضة الأقصى، وواجهت حكومة إسرائيل ثلاثة أمور هي، سحب شرعية الدولة وسحب شرعية رئيس الحكومة وسحب شرعية الجيش وقوات الأمن⁽⁴²⁾. ولكن هذا لم يستمر طويلاً، عندما تعلم جيش الاحتلال أن "آلة التصوير ليست هي العدو"⁽⁴³⁾، وثمَّ العمل على ايجاد شبكة إعلامية متناسقة غرست في وسائل الإعلام الدولية الرؤية الإسرائيلية القائمة على "تاريخية ما يجري"⁽⁴⁴⁾، كما تم العمل على زيادة ميزانيات العلاقات العامة "لاجراء استطلاعات رأي وبلورة مجموعات تأثير ولبحث ماهية الرسائل التي يمكن ايصالها للرأي العام العالمي وآليات نقلها.. وخاصة في الجامعات"⁽⁴⁵⁾.

وعلى المستوى المحلي، فإن القناة الأولى والثانية الإسرائيليتين وبعد أن إمتصتا ارتباك الأيام الأولى للانتفاضة، تعودتا أن ينقلا صور العمليات الفدائية في المدن الإسرائيلية دون أن تقطع بث الإعلانات التجارية والبرامج الترفيهية، لأن بث الاعلانات التجارية ضروري لتوفير أجور موظفي القنوات⁽⁴⁶⁾. وبهذا الصدد يشير دان كاسبي رئيس قسم الاعلام في جامعة بن غوريون إلى أن "الصحافة الإسرائيلية مثل كل صحافة وقت الحروب، قد تبنت مواقف السلطة، ولم تشفَّ الصحافة مما اعتقدوا بأنها شفيت منه عام 1973"⁽⁴⁷⁾.

ويضرب الباحث صوان مثلاً على ما ذهب إليه في تلك الصورة التراجيدية التي استشهد فيها الطفل محمد الدرة في غزة، فقد ذكرت وسائل الاعلام الإسرائيلية أن الدرة قتل برصاص الفلسطينيين أولاً، ثم ذكرت تلك الوسائل أنه سقط خلال "تقاطع نيران"، أما الصيغة الأسوأ فكانت في وصف الطفل بأنه كان مشاعباً أو مؤذياً جلب الموت لنفسه، أما التهمة الأخيرة فتأتي على شكل سؤال "ماذا كان يفعل هناك"⁽⁵⁸⁾، ويعتقد هذا الباحث أن الإعلام الإسرائيلي يقوم بعمليات نفسية عرضها كالتالي:

أ. عمليات تضليل متعمد تهدف إلى تغييب الأسباب الحقيقية للانتفاضة وتغييب الأسباب الحقيقية للعدوان، كما تعمد إلى إثارة الفتنة بين السلطة وشعبها والفصائل فيما بينها،

(42) معاريف 2005/10/5، وهذا التصريح يعود لجدعون مئير رئيس قسم الاتصالات والاعلام في وزارة الخارجية الإسرائيلية.

(43) المصدر السابق

(44) المصدر السابق.

(45) المصدر السابق.

(46) المصدر السابق.

(47) المصدر السابق.

(58) المصدر السابق، ص (38)

وتتعمد تضليل الجمهور على مختلف أنواعه ومستوياته وعدم تزويده بالحقيقة كما هي، وإنما تخضع هذه الحقيقة لعمليات الرقابة والفلترة والحذف والاضافة، باعتبار أن الحقيقة هي أولى ضحايا الحروب⁽⁵⁹⁾.

ب. عمليات تبرير للعدوان والاحتلال من خلال الاتكاء على مقولات مثل "القتل المستهدف" و"الدفاع الايجابي" وتوجيه رسائل "متوهجة" لأشخاص بعينهم تهددهم فيها بالقتل صراحة، وهو ما عرف خلال أيام الانتفاضة بقوائم المستهدفين بالقتل⁽⁶⁰⁾.
يمكن القول إن وسائل الإعلام الإسرائيلية لعبت دورها كاملاً في تنفيذ العمليات النفسية الحربية تجاه الشعب الفلسطيني في أماكن تواجده وخصوصاً في الضفة والقطاع.
أما مضامين الرسائل الإعلامية ودعاويها السياسية في وسائل الإعلام العالمية والغربية فهي على النحو التالي⁽⁶¹⁾:

العرب	اليهود
لا هدف لهم من الوجود	ترتكز الدعاية الصهيونية على الايديولوجية الغربية
الحق الشرعي في فلسطين غير معروف	الحق الشرعي في فلسطين "أرض الميعاد"
العرب متخلفون كسالي	اليهود تقدميون: جعلوا من الصحراء جنة
الدول العربية مليئة بأسلحة الدمار	إسرائيل دولة صغيرة محاطة بـ 21 دولة عربية
العرب يريدون تدمير إسرائيل بإلقائها في البحر	إسرائيل تتشد السلام
لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضات	إسرائيل تريد مفاوضات مباشرة
يريدون تدمير القيم الغربية	ترتكز إسرائيل على القيم الغربية
العرب قتلة وإرهابيون	اليهود هم ضحايا الإرهاب
القادة العرب ديكتاتوريون وقتلة	إسرائيل الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط
غير قادرين على قول الحقيقة	إسرائيل قادرة على قول الحقيقة

⁽⁵⁹⁾ د. البدانية، مصدر سابق، ص (438).

⁽⁶⁰⁾ صوان، مصدر سابق، ص (42).

⁽⁶¹⁾ "عملية السلام في الصحافة الإسرائيلية"، مجلة دراسات شرق أوسطية، فصلية محكمة، عمان، عدد 18، السنة السادسة، شتاء

اليهود أذكيا	العرب أغبيا
فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض	يستطيع الفلسطينيون العيش في أي مكان في العالم العربي الكبير
اليهود جادون متفوقون تكنولوجيا	العرب جبناء لا يستطيعون استخدام التكنولوجيا وكسالى
إسرائيل دائماً منتصرة في جميع الحروب مع العرب	العرب دائماً خاسرون في الحروب
إسرائيل هي حامية المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط	العرب يسعون دائماً لتدمير المصالح الأمريكية، فهم وراء أزمة الطاقة والتضخم في أمريكا
إسرائيل الحليف والصديق الأول لأمريكا	العرب العدو الأول لأمريكا
إسرائيل دولة تحظى بإعجاب الأمريكان	العرب خطر على الانسانية
هناك قاعدة مشتركة بين اليهود والمسيحيين "الكتاب المقدس"	العرب أغراب، دينهم وكتابهم "القرآن" مختلفان
إسرائيل حقيقة واقعة معترف بها من قبل الأمم المتحدة والدول الكبرى	العرب غير قادرين على الاعتراف بهذه الحقيقة "إسرائيل"

أما فيما يتعلق بالدعاية السياسية الإسرائيلية في المواقع الالكترونية خلال انتفاضة الأقصى وخاصة أثناء عملية السور الواقى فقد تم رصد ثلاثين موقعاً إلكترونياً في تلك الفترة⁽⁶²⁾، هدفت جميعاً إلى

(62) والمواقع هي:

www.Wujs.org, see also www.onfo.jpost.com
www.israel-mfa.gov.il
www.israelmarketin.com
www.Israelnewsagency.com
www.israel-maf.gov.il, see also www.us-israel.org
www.us-israel.org
www.israel-mfa.gov.il
www.pmo.gov.il
www.quivis.com
www.quivis.com
www.us-israel.org
www.quivis.com
www.quivis.com

التأثير على الرأي العام العالمي وعلى القادة السياسيين ومن أجل تحشيد الدعم والتأييد وكذلك من أجل تشويه الحقائق وتقليل المصاعب التي تواجهها الجاليات اليهودية بسبب ما يجري في الأراضي الفلسطينية وللدرد أخيراً على الدعاية الفلسطينية⁽⁶³⁾.

وتلخصت الدعاية في هذه المواقع في أن السبب الحقيقي للانتفاضة لم يكن قيام شارون بزيارة الأقصى وإنما بسبب رغبة الفلسطينيين في استخدام العنف بدل المفاوضات، وأن الانتفاضة كانت بقرار استراتيجي وليس بسبب الاستيطان والاجراءات الإسرائيلية القاسية. كما ركزت الدعاية الالكترونية الإسرائيلية على مسألة قتل النساء والأطفال، فأشارت إلى أن النساء اللواتي ينفذن عمليات تفجيرية انما يعلنن ذلك من أجل التخلص من العار وحفاظاً على شرفهن، ولأن الآباء والأمهات هم الذين يدفعون أبناءهم إلى تلك الأعمال من أجل المال والحصول على السمعة، كما أن ثقافة المجتمع الفلسطيني تشجع على الكراهية مقابل المجتمع الإسرائيلي المتسامح، إلى ذلك تناولت تلك المواقع الالكترونية الجيش الإسرائيلي، فأشارت إلى أن عملية السور الواقية عملية محدودة تهدف إلى إلقاء القبض على الإرهابيين وقتلهم ومصادرة أسلحتهم، وأن سبب استخدام الطائرات الحربية إف- 16 ما هو إلا لردع العنف الفلسطيني ووقف العنف ولأنها أكثر دقة من وسائل قتالية أخرى، وأن إسرائيل تدافع عن نفسها ليس إلا، واستراتيجيات إسرائيل معروفة وهي التمسك بعملية السلام وضبط العنف وتدمير مدبري الهجمات الإرهابية، أما بالنسبة للرئيس ياسر عرفات، فقد ركزت تلك المواقع الالكترونية على أن عرفات يستخدم العنف دائماً ليحصل على نتائج وتنازلات من الإسرائيليين وهو شخص إرهابي ومنتهاك لاتفاقات أوسلو. أما بالنسبة لمذبحة جنين فقد وصفت تلك المواقع بأن ما جرى لم يكن مذبحة بدليل

www.israel-mfa.gov.il

www.israel.org

www.israel.org

www.israel.org

www.izaia.org

www.aish.com

www.sptimes.com

www.israel-mfa.gov.il

www.israel-mfa.gov.il

www.israel-mfa.gov.il

www.israel.org

www.us-israel.org

www.aish.com

www.aish.com

www.israelmarketing.com

www.zmag.org

(63) د. ابراهيم أبو عرقوب "الدعاية الصهيونية الالكترونية ضد انتفاضة الأقصى" مجلة دراسات شرق أوسطية، فصلية محكمة،

مقتل 23 جندياً إسرائيلياً بسبب مخاطرتهم بحياتهم حتى يتجنبوا إيذاء غير المقاتلين من سكان مخيم جنين، هذا وقد قتل 56 شخصاً من المخيم غالبيتهم من الإرهابيين -حسب الموقع (64)- وتشير تلك المواقع أيضاً إلى أن الجيش شجع الإرهابيين على الاستسلام رغم أن المخيم هو عاصمة الإرهابيين، ولأن إسرائيل لا تخفي شيئاً فقد وجهت دعوة إلى فريق تقصي الحقائق لزيارة جنين. ولا توفر المواقع الالكترونية الإشارة إلى الإسلام كدين يدعو إلى العنف والإرهاب، فتذكر أن العقيدة الإسلامية هي الدفينة المناسبة لاشعال نار العنف الإسرائيلي وأن القرآن يدعو إلى تدمير اليهود (65).

وهكذا، فإن تلك المواقع الالكترونية الإسرائيلية ترسم صورتين نمطيتين لكل من الفلسطينيين والإسرائيليين وتجعل منهما مدخلين سهلين ومتاحين لكل من يريد التعرف على الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، ويمكن لنا اجمال تلك الصورتين على النحو التالي (66):

الإسرائيليون	الفلسطينيون
مدافعون	معتدون
ديمقراطيون	دكتاتوريون
ضحايا الارهاب	إرهابيون
معتدلون	متطرفون
ضحايا العمليات الانتحارية	انتحاريون
شارون رجل سلام	عرفات إرهابي
يحاربون من أجل البقاء	لا يعترفون بحق إسرائيل في الوجود
يحترمون حقوق الإنسان بعدم الاعتداء على الطفل والمرأة	يقتلون الأطفال والنساء
ينشدون السلام دائماً	أعداء السلام
الأطفال الإسرائيليون يتعلمون قيم السلام والديمقراطية والتسامح وتقديس الحياة والتعددية	الأطفال الفلسطينيون يتعلمون كراهية اليهود والتوق لقتلهم وعدم الاعتراف بحقهم في الوجود

(64) هذا الموقع بالذات www.Israel-mfa.gov.il

(65) د. أبو عرقوب، المصدر السابق، ص (44)

(66) المصدر السابق، ص (45) ويذكر هنا أن هذه الدعاية الإسرائيلية بمفاهيمها ومصطلحاتها وتوجهاتها وجدت طريقاً واسعاً لها في الإعلام الغربي. ينظر كتاب Bad News From Israel الذي سبقت الإشارة إليه.

ولكن هذا لا يمنع من وجود مواقع إلكترونية إسرائيلية تختلف عن هذه، تميزت بالشجاعة والقدرة على تحليل الواقع ومواجهته والإشارة بكثير من الجرأة إلى الأسباب الحقيقية لما يجري من أمثال موقع "اللسعة" و "الضفة اليسرى" و "الرفقة الصادقة" وهي مواقع باللغة العبرية يقف وراءها في أحيان كثيرة يهود شرقيون متنورون⁽⁶⁷⁾.

ولكن، ومن جهة أخرى، فإن الصحافة الإسرائيلية -المجندة وقت الحرب، وكل أوقات إسرائيل حروب- لم تستطع أن تغفل المخاوف والهواجس التي تنتاب الجمهور الإسرائيلي جراء أحداث انتفاضة الأقصى، أي أن هذه الصحافة استوعبت وعبرت عن مخاوف جمهورها، وهي على الرغم من كل جهودها في تحقير شأن العدو، إلا أنها وفي الوقت ذاته كانت من القوة والشجاعة بحيث عبرت عن المخاوف العميقة والعميقة جداً في أعماق جمهورها، ويرصد د. عبد الوهاب المسيري هذه الظواهر كما يلي:

أولاً: إن الصحافة الإسرائيلية عبرت عن فقدان الإحساس بالأمن وفقدان الاتجاه وذلك من خلال عدم القدرة على التغلب على "الإرهاب الفلسطيني" والعجز الأمني في مواجهة الفلسطينيين.

ثانياً: عبرت الصحافة الإسرائيلية عن عمليات الالتفاف على الالتفاف، بمعنى أن الطرق الالتفافية التي أقيمت من أجل خدمة المستوطنين أثبتت فشلها مما أجبر حكومة إسرائيل على شق طرف التناقضية أخرى لحماية المستوطنين، دليل فشل المشروع الاستيطاني من جهة ودليل فشل المفهوم الاستيطاني نفسه القائم على فكرة أن فلسطين أرض بلا شعب. الصحافة الإسرائيلية فضحت مفهوم الاستيطان ومواطن فشله وعبرت عن تطلعات شعب مقاوم لا يمكن الالتفاف عليه.

ثالثاً: عبرت الصحافة الإسرائيلية عن أولئك الرافضين للخدمة العسكرية وظواهر النزوح والتنقل من منطلقة إلى أخرى، وذلك دليل على أن مواجهة الفلسطينيين في انتفاضة الأقصى لم تكن حرباً ضرورية وليست حرباً من أجل إسرائيل وهي غير مبررة ولا أخلاقية.

⁽⁶⁷⁾ نبهني إلى هذه المواقع الأستاذ الدكتور عزيز حيدر في لقاءات شخصية معه أثناء اعداد البحث، وهي مواقع تتحدث بصراحة وجرأة عن مواطن الظلم والاجحاف الاثني والعربي وكذلك للصراع العربي الإسرائيلي من منطلقات غير منطلقات الرواية الرسمية.

رابعاً: عبرت الصحافة الإسرائيلية عن المخاوف العميقة التي تنتاب البعض من نهاية دولة إسرائيل والمخاطر المحدقة بها والتي قد تؤدي إلى دمارها، وذلك دليل الإدراك بأن المشروع الصهيوني لا يمكن تحقيقه بالوسائل المستخدمة حالياً⁽⁶⁸⁾.

هذه النتيجة التي يتوصل إليها الدكتور المسيري، يتوصل إليها أيضاً وبذات الدرجة الباحث في شؤون الإعلام واللغة الإعلامية دانئيل دور عندما يبحث في تفاصيل التغطية الإعلامية لانتفاضة الأقصى ولعملية السور الواقى بالذات، فيقول إن هذه التغطية أظهرت وعياً إسرائيلياً يائساً ومتخوفاً ومضطرباً وناقماً وساخراً⁽⁶⁹⁾، ويضيف هذا الباحث القول إن هذه التغطية كانت مؤطرة داخل إحساس أو شعور من "المصدقية الذاتية المغلقة"⁽⁷⁰⁾، رغم أن الإعلام الإسرائيلي لم يكن متجانساً ويحمل فروقات مهمة بين وسائل الإعلام المختلفة⁽⁷¹⁾.

ومن ذلك، يخلص هذا الباحث إلى استنتاجه الهام ومفاده "أن وسائل الإعلام الإسرائيلية متشابهة فيما بينها بكل ما تدحذه جانباً، وهي تعمل جميعاً حسب منظومة أيديولوجية أساسية، فهي تمتنع، إلا في القليل النادر، عن تغطية إعلامية توحى بأن إسرائيل لا تقوم بما تقوم به كردة فعل على الإرهاب الفلسطيني، وإنما تقوم بما تقوم به من أجل أجندة خاصة بها، ومن أجل ذلك أيضاً فإنها تنفذ أعمالاً غير معقولة وغير أخلاقية في اتجاه معين"⁽⁷²⁾.

(68) د. عبد الوهاب المسيري، "الادراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح" بيروت، دار الحمراء، 2002، ص (127-167).

(69) دانئيل دور، "من وراء الجدار الواقى"، بابل، تل أبيب، 2001، ص (8-12).

(70) المصدر السابق، ص (13).

(71) المصدر السابق، ص (12).

(72) المصدر السابق، ص (11).

مصادر القوة والضعف:

لفهم أكثر عمقاً حول مصادر القوة والضعف في وسائل الإعلام الإسرائيلية يجب أن نوضح ما المقصود بهذه الكلمات، فمصادر القوة التي نقصدها هي تلك المؤثرات والعوامل التي تجعل من الوسيلة الإعلامية تقوم بمهمتها الإعلامية الحققة، أي تعريف الجمهور بحقائق ما يجري دون حذف أو رقابة ضمن الحفاظ على حق الجميع بالحضور والتمثيل وإسماع الصوت في إطار من المصلحة العامة والقوانين المعمول بها في الدولة والمجتمع، أما مصادر الضعف فهي تلك العوامل التي تحول وسيلة الإعلام إلى وسيلة تابعة وضعيفة وغير قادرة على القيام بمهمة الإعلام والتعريف وتمرير المعلومات إلى الجمهور. وبهذا المنظور فإن الصحافة في إسرائيل تتميز بالآتية:

أولاً: أن هذه الصحافة التي بدأت متعددة ومختلفة ومتناقضة بسبب التعددية الحزبية، انتقلت في عهد الخصخصة والليبرالية إلى أن تكون متعددة أيضاً على أسس تجارية بحتة، الأمر الذي دفعها إلى التنافس التجاري الذي يجزئ مع التنافس على السبق الصحفي والإثارة الصحفية. أي أن التعددية السياسية الحزبية القديمة تحولت الآن إلى تعددية ربحية، الأمر الذي يسمح بظهور آراء مختلفة ونشاط صحفي واحتراف ومهنية عالية⁽⁷³⁾.

ثانياً: الدخول في عصر العولمة وما تبع ذلك من قوانين اقتصاد السوق الحر، دفع بالمؤسسة الحاكمة أن تكون أقل تدخلاً في المضامين الصحفية أو المادة الصحفية المعروضة، أي أن سيطرة النظام خفت، الأمر الذي جعل من هذه الصحافة أكثر انفتاحاً على "الأخر" وأكثر حرية في مناقشة القضايا الحساسة والشائكة⁽⁷⁴⁾.

رابعاً: البنية الاجتماعية الإسرائيلية تسمح بظهور صحافة قطاعية، تعبر قطاعات اثنية وثقافية، كالصحافة الروسية والحريدية والعربية بما في ذلك من تعددية واختلاف وجدل، الأمر الذي يسمح بمساحة حرية أكبر وقدرة على التعبير عن مصالح هذه القطاعات.

خامساً: هناك أنواع مختلفة من الرقابة تمارس على الصحافة الإسرائيلية تأتي من خلال الاتفاق غير المكتوب بين المحررين وسلطات الجيش حول ما ينشر وما لا ينشر. وكذلك هناك مرسوم الصحافة الصادر عام 1933 -الذي ينص في أحد بنوده على ضرورة الحصول على إذن من الدولة لاصدار

⁽⁷³⁾ ليمور، قضايا، مصدر سابق، ص (130).

⁽⁷⁴⁾ وقائع يوم دراسي، مصدر سابق، ص (112).

صحيفة، وهو أمر نادر في الديمقراطية الغربية في الوقت الحاضر⁽⁷⁵⁾ - وينص أيضاً على أن المحكمة تستطيع منع إصدار صحيفة حتى ثلاث سنوات لأي سبب آخر، وهناك أيضاً المادة رقم 113 من قانون العقوبات الذي يفرض قيوداً معينة على نشر معلومات قد ترى الحكومة أنها معلومات سرية، بالإضافة إلى ذلك فإن في إسرائيل جهاز رقابة عسكري يعمل من خلال القانون يستطيع أن يمنع نشر أية معلومات في البلاد أو خارجها، وإسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم، التي تعتبر نفسها ديمقراطية، ويوجد فيها مثل هذا الجهاز⁽⁷⁶⁾. يضاف إلى هذه القيود، منصب المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي الذي يملك القدرة على التأثير فيما ينشر أو لا ينشر في الصحف. فإذا أضفنا أن هناك تسوية ما بين المحررين وسلطات الجيش، فإن المتحدث باسم الجيش يتحول إلى مصدر موثوق وأكد للمعلومات التي يجب أن تمرر إلى الجمهور، كما أن للمتحدث باسم الجيش الصلاحية والقدرة على اختار المرسلين العسكريين في الصحف والقنوات الإذاعية والتلفزيونية⁽⁷⁷⁾.

سادساً: إن الدولة اليهودية القائمة على أسس عقائدية ودينية وأتنية التي تنتج سياقاتها الثقافية والإعلامية ستفرض بالتالي تلك السياقات ضمن ما يسمى بالفضاء الإعلامي على معظم الوسائل الإعلامية لتحظى هذه الأخيرة بالقبول والشرعية والاستمرار، ولهذا، فإن الصحافة الإسرائيلية، في معظمها، تتبنى هذا الخطاب دون نقاش في كثير من الأحيان⁽⁷⁸⁾.

سابعاً: إن تحول ملكية الوسائل الإعلامية لأفراد وشركات جعل من هذه الصحافة تميل إلى أن تعبر عن مصالح اقتصادية وأن تتحاز إلى خطط حكومية تدعمها بغض النظر عن مصلحة الجمهور⁽⁷⁹⁾. ثامناً: يتميز الإعلام الإسرائيلي - بسبب من تحديات المجتمع والدولة وتعدد الاتنيات والثقافات وبسبب الوضع الأمني المتوتر في أغلب الأحيان - بقدرة على التعبير عن تلك الفسيفساء الاتنية والثقافية ولكنه في معظم الأحيان يتجند أو ينضم إلى الأيديولوجية الرسمية للنخب الإعلامية والسياسية الحاكمة، أي أن هذا الإعلام في معظم الأحيان لا يستطيع تجاوز تلك السقوف الأيديولوجية والثقافية التي تقوم عليها الدولة والمجتمع، ليس بسبب الخضوع للفضاء الإعلامي فقط ولكن من منطلق الإيمان بتلك السقوف والمنطلقات، ويظهر ذلك خاصة فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني.

(75) د. جمال، "الصحافة والإعلام في إسرائيل"، مصدر سابق، ص (207)

(76) المصدر السابق، ص (210)

(77) المصدر السابق، ص (215)

(78) هذه النقطة بالذات سيتم معالجتها بتوسع أكبر في الفصول القادمة.

(79) ليمور، مصدر سابق، ص (132)

خلاصة:

التحولات الكبيرة التي طرأت على ملكية وسائل الاعلام وتمركزها في أيدي قليلة، حول تلك الوسائل إلى أدوات طيعة إلى حد كبير بأيدي النخب المسيطرة، الإعلامية والسياسية والاقتصادية، ولهذا فقد تغير مفهوم التعددية الحزبية إلى مفهوم التعددية والنتافسية القائمة على الاحتراف والمهنية والبحث عن الربح، الأمر الذي جعل من الصحافة الإسرائيلية أكثر اعتماداً على الإعلانات والترفيه، وتحولت هذه الصحافة أكثر فأكثر للتعبير عن وجهة نظر المؤسسة الحاكمة نظراً لطبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين تلك النخب، ومن جهة أخرى فإن الصحافة الإسرائيلية، وطنية أو قومية أو تجارية أو مستقلة أو ناقدة تختلف فيما بينها بكل صغيرة وكبيرة في الوضع الداخلي من خلال عمليات النقد والمساءلة، ولكن معظم هذه الوسائل "تموقع نفسها بشكل مختلف في إطار الإجماع الإسرائيلي" كما يقول الباحث الإسرائيلي داننيل دور في كتابه المشار إليه سابقاً، هذه الوسائل يلقي عليها مسؤولية شن العمليات النفسية الحربية ضد الشعب الفلسطيني، الأمر الذي يدفعها إلى انتهاج أساليب وكيفيات لا علاقة لها بقوانين وأخلاقيات الصحافة كما تعرفها مفاهيم الديمقراطية، وبسبب من ذلك، أقصد الحرب والوضع الأمني المتردي في أغلب الأحيان، فإن الحيرة واليأس والسخرية مواضيع مألوفة في الصحافة الإسرائيلية للتعبير عن أزمة المجتمع الإسرائيلي من جهة والصهيونية من جهة أخرى.

إن الإعلام الإسرائيلي المتعدد من جهة، والمجند من جهة أخرى، الذي يشن الحرب من جهة ويحاول أن يعبر عن جمهوره من جهة أخرى، يتحول إلى ظاهرة خاصة جداً، "لم تعد التعريفات المألوفة قادرة على وصفها" كما يقول عنها داننيل دور الأنف الذكر.

الفصل الثالث: مضامين الخطاب الإعلامي الصهيوني خلال عملية "السور الواقي"

هيمنة الدولة على الإعلام:

تلعب اللغة- بمعنى المفردة- في الخطاب الإعلامي الصهيوني عامة وخلال عملية السور الواقي خاصة، دوراً هاماً في قتل المعنى وفرض التعميمات واحتقار المعرفة، وتجسيد الخرافة بحيث تتحول إلى حقيقة بفعل التكرار، حقيقة سياسية وغطاء للاستراتيجية والعقيدة العسكرية الاحتلالية من خلال ذلك الكم الهائل من المفردات "الأخلاقية" التي تسهل كل شيء للمحتل في أن يمارس ما يريد. فالمحتل هو الذي يضع التعريف ويحدد المسمى وخلال ذلك فإنه عملياً يقوم بالتصنيف والاختزال والتبسيط والتشويه والإخفاء والحذف وبالتالي، فإن عملية التصنيف العسكرية ستكون سهلة ومبررة ومقبولة ومستساغة.

هذا الكلام الذي سنثبته خلال هذا البحث ينطبق تماماً على ما ميز الإعلام الصهيوني عادة في تعامله مع الفلسطينيين سواء أكانوا داخل الخط الأخضر أم خارجه، إذ خضع هذا الإعلام إلى ثنائية "نحن" و "هم" من جهة، واستخدام تعبير "القانون والنظام" من جهة أخرى، بحيث جعل من الفلسطينيين - وهم الأقلية والطرف الضعيف- عاجزين عن استخدام الإعلام ذاته للتواصل مع المجموعة المهيمنة⁽⁶⁾. إن استعمال المعيارين السابقين في التعامل مع الفلسطينيين جعل الإعلام الصهيوني دائماً يتصرف بطريقة مجنونة - بتعبير د. مصطفى كبحا- وتعبوية- بتعبير د. خليل ريناوي-. والحقيقة أن هذا البحث لا يهدف إلى إظهار هذا الانحياز أو هذا التجند، فلن ننتظر من المحتل أن يكون رحيماً أو إنسانياً، ولكن هذا البحث معني بإظهار أن اللغة المستعملة في هذا الخطاب تعكس الاحتقار والتغيب والنفي وسحب الشرعية وتوهين العلاقة بين الضحية وقضيتها وأرضها وثقافتها، وأن اللغة المستعملة في هذا الخطاب تعكس اتجاهات وميولاً لا تعمل ولا تسعى لخلق أو إنشاء أي علاقة ممكنة حاضرة أو مستقبلية مع هذه الضحية، والأهم من هذا كله، نية هذه اللغة في أن تشيء الإنسان وتبتهته وتبخسه وتحوله إلى شيء بلا قيمة أو مضمون أو عالم جواني، وكأن هذه اللغة تريد قتل الطرف المقابل معنوياً لتبرير قتله فعلياً، والخطاب الإعلامي الصهيوني يقوم بذلك مباشرة وبطريقة غير مباشرة، بمعنى أن "المجموعة المهيمنة"

(6) خليل ريناوي: "التغطية الإعلامية الإسرائيلية لانتفاضة الأقصى، آليات سحب الشرعية"، فصلية قضايا إسرائيلية، عدد (6)،

(7)، السنة الثانية، رام الله، 2002، ص68.

هنا لا تخفي مقاصدها ولا أهدافها ولا تجمل خطابها أو تموهه، على عكس المجتمعات الديمقراطية الغربية التي تستعمل "طرقاً جديدة للتأثير على الجماهير، معتمدة على آليات التحكم الدعائية أكثر من اعتمادها على التحكم المباشر.. مثل تمويل برامج راديو كثيرة بناءً على توصيات من مختصين في العلاقات العامة، هذه الفئات تقوم بتنظيم مسابقات على جوائز قيمة وتقيم صناديق دعم لمشاريع ذات قيم، وهذه الوسائل هي دلالة واضحة على أن القوة الاقتصادية قلصت الاستغلال المباشر، وتوجهت إلى نوع أكثر نعومة من الاستغلال النفسي، خصوصاً بواسطة بث الدعاية في وسائل الإعلام" (٥٩).

آليات السيطرة الثقافية الجديدة هذا تزايد مع الوقت، إذ أن أدوات السيطرة العنيفة أُستبدلت بأدوات تحكم معنوية ورمزية. (٦٠)

ذلك أن استعمال القوة من قبل فئة ضد فئة أخرى أقل وأضعف صار أمراً غير مقبول مادام يمكن الحصول على ذات النتيجة من خلال ما يسمى "بصناعة الانصياع والولاء الاجتماعي السياسي" (٦١) من خلال وسائل إعلامية حديثة تخترق المجتمع وتحاول أن تستولي على أذهان العدد الأكبر من أفرادها، وإذا ما طبق هذا الكلام على الخطاب الإعلامي الصهيوني، فإنه يمتلك وجهين أو لغتين، لغة موجهة إلى جمهوره - تتميز برغبتها في تعزيز المشترك وتقوية القواسم المشتركة - ولغة موجهة إلى جمهور عدو، غير موثوق به، تتميز بأنها لا تحاول الإقناع أو تغيير الاتجاهات بقدر رغبتها في التشكيك والتوهين والتميع، إنها "لغة حرب نفسية حقيقية" (٦٢)، لغة تريد وصف ضحيتها إلى درجة أن تجبر تلك الضحية على تصديقها ومن ثم استعمالها - وسنثبت هذا الكلام فيما سيأتي من صفحات -.

إن علاقة الإعلام بالدولة وهيمنتها الأيديولوجية والسياسية في إسرائيل تقدم مثلاً نموذجاً لما يطلق عليه المنظر الإيطالي أنطونيو غرامشي بالهيمنة الأيديولوجية التي تستبدل استخدام القوة بالتحكم بالأراء والأفكار والتوجهات في المجتمع (٦٣)، حيث تعكس الهيمنة السياسية في فرض خطاب إعلامي وثقافي ينصاع - دون أوامر محددة أو فرضها بالقوة - لما هو مقبول وغير مقبول وما هو مسموح وما

(59) Paul Lezerfeld and Robert Merton: "Mass communication, Popular Taste and social Action", The communication of Ideas (New York: The Institute for Religious studies, 1998), PP 492- 512.

منقولاً من جمال: مصدر سابق، ص 27.

(٦٠) المصدر السابق، ص 28.

(٦١) المصدر السابق، ص 28.

(٦٢) د. أحمد نوفل: "الحرب النفسية - الكتاب الثالث" عمان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 1986، ص 16.

(٦٣) جيوفري نوبل سميث وكينتين هور: "غرامشي: دفاتر السجن"، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، 1991، ص 497- 499، وكذلك:

Antonio Gramsci Reader: selected writing, 1916- 1935, edited by David Forgasc (New York: New York University press, 2000).

هو ممنوع. ويشير غرامشي بهذا الصدد إلى أن إحدى آليات الدولة للسيطرة على الخطاب الإعلامي والثقافي العام لا تكون نتيجة لتحكم الدولة في صناعة القرار وتوزيع الموارد فقط، وإنما بسبب من تحديد ما يسمى "بتحديد الحيز السياسي وحدود الخطاب السياسي أيضاً".^(٦٤)

اللغة الإعلامية المهيمنة هي انعكاس للبنية المؤسسية والاقتصادية القائمة في الدولة ويتم استنساخها بما يسمى بعملية "التشفير"^(٦٥)، التي يعرضها المفكر البريطاني ستيفارت هول بمراحل أربع يتطور فيها هذا الخطاب المهيمن وهي: مرحلة الإنتاج، ومرحلة التوزيع، ومرحلة الاستهلاك، ومن ثم مرحلة استنساخ اللغة وشيوعها وهيمنتها.^(٦٦)

بمعنى أن منتجي أي عمل إعلامي يشفرون بشكل واعٍ أو غير واعٍ أفكارهم ومصالحهم في الخطاب الإعلامي بشكل يصعب استقصاؤه من خلال الاستهلاك العادي، وبهذا يتم تمرير الكثير من المفاهيم والتوجهات التي تعكس مصالح المنتجين إلى المستهلكين دون أن يكون هؤلاء واعين لذلك، فإذا أُضيف إلى ذلك أن السياق القومي هو الإطار الذي تتم فيه هذه العملية من السيطرة الفكرية والثقافية، فإننا سندرك حجم ومدى وعمق تأثير ومركزية الدولة في عملية الإنتاج للخطاب الإعلامي. فالدولة حتى وإن كانت ليبرالية، ليست مؤسسة حيادية تعبر عن إرادة جميع أفراد وفئات المجتمع وشرائحه بشكل متساوٍ رغم ادعائها بذلك.^(٦٧)

فماذا عن الوضع في إسرائيل!؟

هناك علاقة قوية بين الفئات الاقتصادية - وهي تقل عدداً وتتركز في أيدي قليلة - التي تملك وسائل الإعلام وبين مؤسسة الدولة، هذه العلاقة تصاغ بمفاهيم قومية - على اعتبار أن الدولة قومية والاقتصاد قومي كذلك - هذه العلاقة التي تصاغ بمفاهيم قومية يُضفى عليها شرعية ويظهرها كأنها متطابقة مع مصلحة جمهور الدولة، وعليه، فإن المؤسسات الإعلامية الخاصة في إسرائيل عادةً ما تتمكئ على الخطاب القومي وتكرسه وتجنده من أجل الحصول على قبول ورضى الجمهور للانتشار والتوزيع، هذا عل الرغم من أن صحيفة "هآرتس" التي تعلن أنها لا تسعى للانتشار، وأنها صحيفة الـ

^(٦٤) يعرف د. أمل جمال ذلك بالقول: "أن الإعلام يرتبط بشكل مباشر بالنخب المهيمنة في المجتمع، حيث أن صياغة الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي تعكس مصالح هذه النخب وأهدافها، والهدف من ذلك هو تنمية الانصياع الاجتماعي والسياسي من أجل ضمان الاستقرار وإبقاء علاقات القوة على ما هي عليه"، مصدر سابق، ص 26.

^(٦٥) د. جمال، مصدر سابق، ص 39.

^(٦٦) المصدر السابق، ص 39.

^(٦٧) المصدر السابق، ص 39.

5% من الجمهور، فقد رصدنا -خلال فترة هذا البحث- أن هذه الصحيفة بالذات ننصاع بشكل أو بآخر، بهذا المدى أو بذاك، إلى رضى الجمهور (د. جمال، ص 30)، ولا تستطيع تلك المؤسسات الخاصة أن تستخدم أو تدخل على ذلك الجمهور من باب المصلحة الخاصة حتى لا تخلق الشك في نفوس المتلقين، ومن هنا، يبقى الخطاب المهيمن الذي تخلقه مؤسسة الدولة هو الخطاب الذي يلقي القبول والرضى ويلتف حوله الجميع^(٦٨)، الأمر الذي يخلق ما يسمى "بال حيزّ الإعلامى"^(٦٩)، ورغم تأثيرات العولمة على اختراق هذا الفضاء إلا أن إسرائيل ما تزال تحد من سيطرة على التأثيرات الخارجية على عقول سكانها واحتواء تلك التأثيرات من خلال استعمال آليات ثقافية وإجرائية للحد من دخولها، مستغلة استمرار الصراع الفلسطيني الإسرائيلي والعربي الإسرائيلي.^(٧٠)

ولا تخرج إسرائيل في هذا عن باقي المجتمعات الرأسمالية، حيث العلاقة القوية بين الدولة من جهة ووسائل الإعلام من جهة أخرى أكثر وضوحاً ورسوخاً، وقد أشار عالم الاجتماع الأمريكي "تالكوت بارسونز" واضع نظرية "العمل الاجتماعى" إلى أن المجتمع ما هو إلا نظام متماسك وديناميكي تلعب فيه الحكومة دور المالكة لوسائل وطرق معينة تحافظ على ذلك التماسك وتلك الديناميكية، بمعنى تحقيق التوازن بين الأجزاء المختلفة التي تشكل بنية المجتمع وتقوم وسائل الإعلام المختلفة بأكبر الأدوار الهامة في هذه العملية^(٧١)، ويتطرق عالم الاجتماع الأمريكي الآخر "ب. يونغ" إلى كيفية إدارة المجتمع البرجوازي، فيشير إلى أن التوازن بين شرائح المجتمع يتحقق بوساطة الإقناع والتشجيع والالتزام أو بمزيج من هذه الطرق جميعاً^(٧٢)، ومن هنا يكتسب الإعلام المرتبط بمؤسسة الدولة أقوى الوسائل تأثيراً في هذا السياق، ولهذا فإن مفهوم "المسؤولية الاجتماعية" التي تدعى العمومية والشمولية حل محل مفهوم "حرية الصحافة".^(٧٣)

^(٦٨) د. غات فيرست و د. إيلي إبراهيم: (تمثيل "الآخر" في فترة النزاع) فصلية قضايا إسرائيلية، عدد (11، 12)، رام الله، مركز مدار، 2003، ص104-108، وكذلك د. جمال، مصدر سابق، ص40.

^(٦٩) الحيزّ الإعلامى هو التطابق الحاصل ما بين سيادة الدولة على أراضيها وسكانها وبين سيادتها على عمليات صياغة اللغة السياسية المهيمنة داخلها، د. جمال، مصدر سابق، ص38، نقلاً عن:

Philip Scglesinger, "Changing space of political communication: The case of the European Union". Political communication, vol. No. 3, July- Sep., 1999, pp. 263- 279.

^(٧٠) عنات إبراهيم، مصدر سابق، ص107.

^(٧١) د. أ. بوريتسكي: "الصحافة التلفزيونية"، ترجمة د. أديب خضور، دمشق، المكتبة الإعلامية، 1990، ص15.

^(٧٢) المصدر السابق، ص15.

^(٧٣) المصدر السابق، ص15.

ومن هذا المنطلق، فإن أحد أهم مميزات الإعلام في المجتمعات الرأسمالية هو تحويل الصراع إلى مجال للنقاش دون الخوض في المضامين، وهو ما نراه بشكل كبير في النقاشات التي يخوض فيها الإعلام الإسرائيلي.

ارتباط العلاقة وقوتها بين الدولة ووسائل الإعلام - الخاصة والتجارية في معظمها - الهادفة إلى الربح من جهة وإقامة التوازن الاجتماعي من جهة أخرى، يجعل من إحدى أهم وظائف وسائل الإعلام تلك هو "الدعاية البحتة"، وهذا ما يؤكد "هارولد لازويل" - عالم الاجتماع الشهير وصاحب نظرية الدعاية في الولايات المتحدة - حيث قال إن الدعاية هي واحدة من أهم وسائل السيطرة الاجتماعية قوة وفعالية.^(٧٤)

وتمارس هذه الدعاية من أجل هدف محدد، حيث تتحول المادة الإعلامية إلى دعاية وليس إلى مصداقية. وقد درس علماء الاجتماع الأمريكيون بالذات مسألة الدعاية هذه - من أمثال باول لاينبرغر في كتابه "الحرب النفسية" ودافيسون - حيث أشارا إلى أن "الدعاية في مجتمعنا محاولة لحرمان الشعب من مقدرته على أن يفكر، وذلك من خلال التزييف أو التقديم المشوه للوقائع أو بأية طريقة من طرق الخداع".^(٧٥)

وفي الدول الرأسمالية - ومنها إسرائيل - عادةً ما لا يتم فهم الدعاية بهذا المفهوم، أي باعتبارها وسيلة مهيمنة من وسائل السيطرة الاجتماعية، فهذا يذكر بنظرية النازي الشهير د. جوزيف غو بلو، وعلى العكس من ذلك، يتم التأكيد عادةً على أن وسائل الإعلام "مستقلة" و "محايدة" و "فوق الأحزاب".^(٧٦) وإذا كان صحيحاً أن القوى الاجتماعية والاقتصادية المهيمنة هي القادرة على تحديد مضمون الرسالة الإعلامية وتحديد المجال الإعلامي - كما نجد الحال في إسرائيل وباقي الدول الغربية - فإن ذلك دليل على تفكك الفكر الديمقراطي جراء التعقيدات التي تمر بها المجتمعات البعد - حدثية في أوروبا وشمال أمريكا^(٧٧). الإعلام في هذه المجتمعات لا يعمل حسب المقترح الذي قدمه الفيلسوف الألماني يورغن هابيرماس في نظرية "الفعالية الاتصالية" التي قدمت نموذجاً لنجاعة الاتصال وتحويله إلى أرضية خصبة لتحقيق الديمقراطية الحوارية التي تتحكم فيها العقلانية وعقلية التنوير^(٧٨). هذا التصور الأخلاقي الذي يقدم مجالاً عاماً تشترك فيه جميع فئات المجتمع بشكل متساوٍ من أجل اتفاق مشترك

^(٧٤) المصدر السابق، ص 16.

^(٧٥) المصدر السابق، ص 16 - 17.

^(٧٦) هذه التصريحات هي من الكثرة والانتشار بحيث لا يمكن حصرها.

^(٧٧) د. جمال، مصدر سابق، ص 41.

^(٧٨) المصدر السابق، ص 41.

يتماشى مع مصالح المجتمع وإرادته، ما هو إلا مجرد تصور أخلاقي منشود لا وجود له على أرض الواقع. فالقوى المهيمنة في المجتمع تقوم ببساطة بتزييف مصلحة المجتمع من جهة واختطاف التعبير عن فئات المجتمع المختلفة من جهة أخرى، وتقوم كذلك بتحديد المجال الإعلامي من خلال تركيز الملكية بنخبة معينة من الصعوبة الدخول إليها.

في الحالة الإسرائيلية نجد أن الواقع الإعلامي معقد ومركب جداً، فمن جهة هناك تعددية واضحة، ومن جهة أخرى هناك خطاب قومي جداً يضع حدوداً واضحة لما هو متاح وما هو غير شرعي، وبالتالي يصعب اختزال هذا الواقع في مقولة التعددية الليبرالية أو في مقولة الهيمنة، كما يقول د. جمال بما يشبه الحيرة، إذ أن هناك تزايد في عدد المؤسسات الإعلامية ومحطات التلفزة والإذاعة، ولكن إلى أي مدى يعكس هذا التزايد تعددية حقيقية في الرأي، ويفسح المجال أمام الأصوات المختلفة للوصول إلى الخير العام والتأثير فيه- ونحن هنا نسأل ما يخص العربي الفلسطيني بالذات- أو إلى أي مدى يعني هذا الازيد تعددية في الملكية؟!

الإعلام الإسرائيلي- وكما هي الحال في الإعلام الغربي- يميل إلى الترفيه والمتعة ولكنه ينصاع إرادياً للمؤسسة العسكرية ويطغى الخطاب القومي على معظم وسائله، ويحاول كل من د. فيوست ود. إبراهيم رصد هذا الخطاب القومي المهيمن فيما يخص تصوير الفلسطيني في الإعلام الإسرائيلي فيتوصلان إلى ما يلي:

أ- التغطية الإعلامية الإسرائيلية تحدد عادة "دوائر الهوية" فتفرق بين عرب المناطق وعرب إسرائيل- رغم ما في هذين المصطلحين من ظلم وإجحاف وعدم موضوعية-.

ب- عادة ما يقوم بالتغطية مراسلون يهود ينحازون لوجهة النظر الصهيونية بشكل تلقائي.

ج- التغطية الإعلامية الإسرائيلية تحدد من خلال سياقات السرد الإخباري من هو الشرير، دون أن تقول ذلك صراحة.

د- استعمال مصطلح "عرب إسرائيل" لا يشبه مصطلح "مواطني الدولة" و التغطية الإعلامية الإسرائيلية تستعمل المصطلح الأول بما يفيد تجريد المواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل من مواظنتهم.

هـ- لا تشير التغطية الإعلامية الإسرائيلية أي معلومات عن الضحية إذا كانت فلسطينية.

و- عادة ما تتسم التغطية الإعلامية الإسرائيلية بالتعميم والشمولية فيما يتعلق بالأحداث المتعلقة بالفلسطينيين.

ز- عادة ما تنزع التغطية الإعلامية الإسرائيلية الشرعية عن أية نشاطات يقوم بها الفلسطينيون، وتتعامل هذه التغطية مع مثل هذه النشاطات من خلال عقدة "القانون والنظام".

ح- عادة ما تعطي التغطية الإعلامية الإسرائيلية الشعور بأن الفلسطينيين داخلها يعملون كطابور خامس.^(٧٩)

من خلال هذا العرض يتضح مدى العلاقة بين سياسة الدولة وإعلامها، يفسرها د. خليل ريناوي بثلاثة أمور هي:

أ- وجود سياسة موجهة لسحب الشرعية من الفلسطينيين العرب في إسرائيل وفي المناطق المحتلة، خاصة في الشهر الأول من انتفاضة الأقصى.

ب- طريقة التغطية الإعلامية ذاتها التي تركز إلى الراحة وعدم التثيت من المعلومات، بمعنى كتابة التقرير الإخباري "من درج المكتب" دون الذهاب إلى موقع الحدث.

ج- التجند الطوعي للإعلاميين للخطاب "القومي المهيمن".^(٨٠)

أما سلمان ناظر فيرصد مميزات الخطاب الإعلامي الإسرائيلي المهيمن خلال انتفاضة الأقصى والكيفيات التي تم فيها تصوير الفلسطيني- داخل إسرائيل وفي المناطق المحتلة على حد سواء- حيث تجندت وسائل الإعلام من أجل خدمة مؤسسة الدولة دون أن تترك هامشاً لوجهة النظر الأخرى، فيورد ناظر ما يلي:

أ- المراسلون هم المراسلون العسكريون والناطقون بلسان الجيش والحكومة.

ب- يصور الفلسطيني من خلف الجنود، وفي حالة نقل مادة إخبارية عن مصدر فلسطيني يتم التشكيك فيها.

ج- ليس هناك توازن بين وجهتي النظر، حيث عدد المقابلات مع الطرف الضعيف قليلة وتتم بطريقة استعلائية واستقرارية وهجومية.

د- الضحية الفلسطينية تقدم بدون اسم ولا أهل ولا تفاصيل والبيوت التي تقصف هي عادة "تكنات لقوات التنظيم" ليس لها أصحاب ولا يسكنها عائلات أو أطفال.

هـ- العنف هو صناعة فلسطينية.

و- الجيش الإسرائيلي هو المعتدى عليه.

ز- عدم تورع وسائل الإعلام الإسرائيلي عن إطلاق عدد من الأكاذيب المكشوفة وعدم تصحيحها عند انكشاف أمرها.

^(٧٩) د. فيوست ود. إبراهيم، مصدر سابق، ص 104-124، وقد قدمت تلخيصاً لهذا المقال المهم الذي رصد صورة الفلسطيني داخل إسرائيل خلال الانتفاضتين.

^(٨٠) وقائع اليوم الدراسي حول شخصية العربي في الإعلام الإسرائيلي، قضايا إسرائيلية، عدد (11، 12)، رام الله، مدار، 2003، ص 97-98.

ح- التغطية الإعلامية الإسرائيلية عادة ما تغطي "نوايا" الطرف الفلسطيني وليس فقط "أفعاله".

ط- تصديق رواية الجيش الإسرائيلي وعدم نقاشها واعتبارها الرواية الأصدق.

ي- التغطية الإعلامية الإسرائيلية تحرض على الفلسطينيين داخل إسرائيل بطريقة مكشوفة.^(٨١)

هذه هي ملامح الخطاب المهيمنة المقبول لدى جمهور واسع ومتعدد ومتنوع، وهو الخطاب المريح من قبل مؤسسة الدولة، لأنه يحقق سياساتها من جهة، وهو مريح من قبل مالكي تلك الوسائل لأنه يحقق الانتشار والتوزيع وبالتالي الربح من جهة أخرى.

تتداخل وظائف الرسالة الإعلامية هنا ما بين الوظيفة الإعلامية البحتة وما بين الدعاية كوسيلة منهجية للسيطرة الاجتماعية، وتحقق أيضاً الانطباق والتطبيق للفكرة الصهيونية نفسها، باعتبارها فكرة تقوم على إحلال شعب مكان شعب، وعلى فكرة الاستعلاء والسيطرة والامتلاك، وكذلك على عدد من الأوهام المتعلقة بحقوق وشرعيات دينية وتاريخية تفننت الدعاية الصهيونية بنشرها وترويجها، وهو ما سنناقشه فيما سيأتي من هذا البحث.

^(٨١) سلمان ناطور: "الإعلام الإسرائيلي والانتفاضة"، قضايا إسرائيلية، عدد1، مدار، رام الله، 2001، ص47-56.

مستويات مختلفة من اللغة:

كان الدكتور جمال محقاً عندما قال إن هناك صعوبة ما في وصف الإعلام الإسرائيلي بالليبرالية والتعددية على الإطلاق، أو الهيمنة على الإطلاق. ذلك أن هناك تنوعاً كبيراً في هذا الإعلام إلى الدرجة التي يجب فيها علينا أن نبتعد عن الاختزال أو التعميط السريع أو مجرد الركون إلى القول إن هذا الإعلام هو إعلام واحد يستعمل لغة واحدة ومصطلحاً واحداً.

وقد وجدت خلال هذا البحث الذي تناول الخطاب الإعلامي الإسرائيلي خلال الفترة ما بين (3/29-5/10) من العام 2002، أي فترة الاجتياح الإسرائيلي، ثلاثة مستويات مختلفة من اللغة هي:

المستوى الأول:

أن هناك خطاباً إعلامياً تتبناه الدولة ومن ثم تتبناه وسائل الإعلام بدون تحفظ، ومن ثم تبني عليه وتضخمه وتعيد إنتاجه بشكل ذي تأثير وضجيج، ويتواصل حتى دون الإشارة إلى التناقضات أو الأكاذيب التي تكتشف بمرور الوقت، وهذا المستوى يتبنى الصورة النمطية عن الفلسطينيين كعدو ومخرب ومجهول.. الخ.. الخ.

لنقرأ هذا الحوار الذي نشرته صحيفة يديعوت أحرنوت بتاريخ 2002/4/4 حول إمكانية طرد الرئيس عرفات:

"موفاز: يجب أن نظيره
شارون: ماذا؟
موفاز: أن نظيره
شارون: أنا أعرف
موفاز: يجب أن نستغل الفرصة الآن، لن تسنح لنا فرصة أخرى.
شارون: الآن أريد أن أتحدث معك. حين تفعلون، أنا لا أعرف بأي وسيلة تفعلون ذلك، ولكنكم تخدرون الجميع".

هذا الخبر كان منشوراً على الصفحة الأولى وبخط عريض ومثير.

لنلاحظ هنا مستوى الكلام ونوعية اللغة المستعملة وطريقة العرض. إن هذه اللغة الساخرة القوية والمسيطرة والعارفة والشاملة التي يتبادلها رئيس الوزراء مع رئيس هيئة أركان حربه، ومن ثم نشر هذا

الحوار بأوسع الصحف انتشاراً لتشير إلى خطاب القوة والاستهتار بالآخر المسيطر عليه بغض النظر عن مركزه، فعرفات ليس "شريكاً" و"غير ذي صلة"^{٨٢}.

الصحيفة ذاتها، وبعد شهر تقريباً من ذلك، تكتب في عنوانها الرئيسي وعلى صفحتها الأولى بتاريخ 2002/5/2 هذا العنوان: "سجن القنلة وعرفات حر"^{٨٣}.

لنلاحظ هنا الربط الخفي -ولكن السريع- بين القنلة وبين عرفات، وبين السجن والحرية التي يبدو من خلال هذا العنوان أنه لا يستحقها. هذه الحرية التي لا يستحقها عرفات -حسب هذا الموقف الرسمي العريض- ظهرت بما يشبه النغمة التي تعارض الواقع وتحرض على تغييره كما ظهر في العناوين التي ظهرت في ذلك اليوم 2002/5/2. فقد قالت معاريف في عنوانها الرئيس "عرفات حر طليق"^{٨٤}، لنلاحظ تكرار الكلمة بما يفيد نوعاً من التحريض، أما هارتس فقد كانت أكثر حضارية واحتراماً فقد قالت في عنوانها الرئيسي "المطلوبون نقلوا من القاطعة إلى أريحا، رفع الحصار عن مكتب عرفات" لنلاحظ هنا الهدوء والدقة و"البرودة"^{٨٥} في وصف الحال، على عكس ما ورد في صحيفة هتسوفيه التي كتبت في عنوانها الرئيسي "إسرائيل: عرفات حر طليق"^{٨٦}، أي إن إسرائيل هي التي تمنح الحرية والانطلاق، وأن ذلك بيدها، وأنها هي من تعلن ذلك بنوعٍ من الأريحية، وسنتعرض بالتفصيل لنوعية العناوين التي تستعملها الصحف الإسرائيلية فيما بعد.

هذا المستوى من اللغة الذي نشير إليه، نستطيع أن نضع اليد عليه من خلال ما نشرته صحيفة معاريف تحت عنوان رئيسي على الصفحة الأولى "يوم قتال عنيف في المناطق: مقتل أربعة جنود خلال المعارك" فنقرأ فيه ما يلي:

"وفي العملية -عملية الاقتحام- في الخليل في المناطق الفلسطينية داهم الجيش منزل المطلوب خالد قفيشة، وفي مرحلة معينة أطلق قفيشة النار وأصاب ضابطاً في صدره توفي على أثرها، فرد مقاتلو حرس الحدود على النار، وحتى يوم أمس لم يكن من الواضح ما إذا كان قفيشة قد أصيب، وخوفاً من أن يكون المنزل مفخخاً تقرر عدم مداومته بل هدمه"^{٨٧}.

^{٨٢} هذان التعبيران هما الأكثر استعمالاً خلال انتفاضة الأقصى من قبل الساسة الإسرائيليين، ومن ثم استعمالاً من قبل الإدارة

الأميريكية بطريقة أقل. والحوار نشر خلال خبر رئيسي نشرته صحيفة يديعوت أحرنوت بتاريخ 2002 /4/4

^{٨٣} يديعوت، 2002/5/2.

^{٨٤} معاريف، 2002/5/2.

^{٨٥} هارتس، 2002/5/2.

^{٨٦} هتسوفيه، 2002/5/2.

^{٨٧} معاريف، 2002/4/5.

- مثل هذه الفقرة لتعطينا فكرة كافية عن هذا المستوى من اللغة حيث يتصف بما يلي:
- أ. إن تحري الدقة لا تعنيه ما دام الأمر يتعلّق "بمخرب". ونلاحظ عدم الدقة في الارتباك الشديد في صياغة الخبر وترتيب المعلومات على حدٍ سواء.
- ب. إن الفلسطيني هو المعتدي رغم أن "المهاجم" هو الإسرائيلي، هنا تظهر الرغبة العميقة - الواعية وغير الواعية- في إبقاء الإسرائيلي مجرد ضحية حتى وهو في حالة اقتحام لبيت أو مدينة ليست له.
- ت. إن التناقض الواضح ما بين مقتل قفيشة أو عدم القتل وبين اقتحام المنزل وبين هدمه لا يعني شيئاً لكاتب هذا الخبر. إذ نلاحظ أن الدقة تغيب عندما يتعلق الأمر بالفلسطيني.
- ث. الأهم من كل هذا أن كل كلمة كتبت في هذا الخبر لم تكن تسعى إلى إظهار الحقيقة أو حتى التوازن، بل هي لغة عمياء إلى حد كبير، لغة جاهزة ومعبأة ومهيأة للانطلاق كلما تعلّق الأمر بفلسطيني وبالذات عندما يكون فلسطينياً "مخرباً".
- مثل هذه اللغة المكتفية بذاتها، غير الفلقة والمستقرة، والتي تأتي بما يجعلها أكيدة ونهائية، تسمح لنفسها أن تضيف في ذات الخبر السابق الذكر ما يلي: "وقامت قوات كبيرة من جولاني وسلاح المظليين وكتيبة الاحتياط باجتياح نابلس التي تعتبر عاصمة الإرهاب الفلسطيني وبدأت بحملة تمشيط واعتقالات"^{٨٨}.
- هنا، اللغة تمتلك من قبل القوي، الذي يستطيع أن يصف ومن ثم يقتنع بما يقول دون أن يناقشه، ولهذا فقد قال زئيف شيف "إن العملية الإسرائيلية كانت إلزامية، بيد أنه ينبغي النظر إليها هذه المرة كمبادرة عسكرية إسرائيلية"^{٨٩}
- هذا المستوى من اللغة الذي لا يرى من الفلسطيني سوى أنه مخرب وقاتل، يصل إلى قول ما يلي:
- "إلى ذلك تدعي مصادرة فلسطينية أن ستة فلسطينيين قتلوا منهم طفلة تبلغ من العمر عامين أثناء تبادل إطلاق النار مع قوات الجيش صباح أمس في منطقة رفح"^{٩٠}. هنا لا بد من الإشارة إلى ما يلي:
- ج. تبدو الرواية كلّها غير أكيدة بما أنّها ادعاء فلسطيني.
- ح. تبدو الطفلة ذات العام ذات صلة بالمكان والأشخاص الذين أطلقوا النار على الجيش.

^{٨٨} معاريف، 2002/4/5

^{٨٩} زئيف شيف "كيف ستنتهي هذه الحملة"، هآرتس، 2002/4/5.

^{٩٠} معاويف، 2002/5/2 وجاء الخبر تحت عنوان "حسناً إن جنتم، قال المطلوب من الخليل للجنود الذين اعتقلوه" وكان الخبر على الصفحة الرئيسة بالخط العريض.

خ. لا يعرف من خلال الخبر من هو المسؤول عن مقتل الطفلة لأنها قتلت أثناء إطلاق النار.

د. أن الطفلة تقدم بدون أسم ولا أهل وكأنها وجدت هناك بدون داعٍ.

ذ. تذكر هذه الحادثة كل من صحيفة يديعوت أحرونوت ولا هتسوفيه، ولكن هآرتس أشارت إلى مقتل ثلاثة أطفال وأبرزت ذلك في عنوان رئيسي على الصفحة الأولى، من خلال هذا العنوان "مقتل سبعة فلسطينيين منهم ثلاثة أطفال في المناطق"^{٩١}

ر. بالمقارنة بما فعلته وسائل الإعلام الإسرائيلي عندما قتلت طفلة تدعى "شلهيفت" من مستوطنة كريات أربع والأم التي قتلت في كيبوتس ميسر داخل الخط الأخضر، فإننا سنلمس مدى الفرق في تقديم الإسرائيلي والفلسطيني وحجم الهوة بين أنواع الدماء وأنواع الحيوانات.

هذا المستوى هو الذي دفع ما نسبته 42% من الإسرائيليين بالمطالبة بقتل أو طرد عرفات من المقاطعة، في حين طالب 27% بابقائه في عزله^{٩٢}. بمعنى أن هناك 69% من الإسرائيليين يريدون "تغيب" عرفات إما بالسجن أو الطرد أو الموت.

هذا المستوى من اللغة يرى أن كل ما يصدر عن الفلسطينيين إنما هو "ادعاءات" أو "خرافات" أو "أكاذيب". فمثلاً هذه صحيفة يديعوت أحرونوت تنشر تحت عنوان رئيسي على صدر صفحتها الأولى "بوش لشارون: انسحب فوراً من المناطق" ما يلي:

"ونفى قائد سلاح الجو اللواء دان حلوتس هذه الادعاءات وقال إن الحديث يدور عن خرافات فلسطينية"^{٩٣}. أما هذه الادعاءات فهي تشير إلى ممارسات جيش الاحتلال في مخيم جنين. وفي معاريف نقراً: "وراجت إشاعات في نابلس أمس تفيد أن ناصر عويس أحد قادة التنظيم في مخيم بلاطة فجر نفسه وسط مجموعة جنود، وقد نفى الجيش هذا الادعاء بشدة وادّعى أن الحديث يدور عن خيال فلسطيني"^{٩٤}

وليس غريباً أن تدور إشاعة في مخيم بلاطة ويلتقطها مراسل الصحيفة، لأن يديعوت أحرونوت تكتب في ذات اليوم أن عرفات يهدد بالانتحار أيضاً، ورد ذلك تحت خبر رئيس تحت عنوان "الجيش أطلق صاروخ لاقرب مكتب عرفات". وفيه نقراً: "إلى ذلك ذكرت الأسبوعية الألمانية فوكس في عددها

^{٩١} هآرتس، 2002/5/2.

^{٩٢} استطلاع للرأي نشرته يديعوت أحرونوت بتاريخ 2002/4/5 أي بعد أقل من أسبوع من بدء عملية اجتياح الأراضي الفلسطينية.

^{٩٣} يديعوت أحرونوت، 2002/4/7.

^{٩٤} معاريف، 2002/4/7.

الصادر اليوم (أي 2002/4/7) إن ياسر عرفات هدد بالانتحار حين وجد نفسه أمام جنود الجيش في رام الله^{٩٥} وحتى تؤكد الصحيفة ما ذكرته مجلة فوكس التي اعتمدت في روايتها على ما قاله الجنود الإسرائيليون، فإن كاتب الخبر يقول من عندياته "وأعلن عرفات ومسدسه الشخصي ملقى على الطاولة أمام زيني وحاشيته..". هذه الخلفية هي التي جعلت ما قالته مجلة فوكس الألمانية صحيحاً. وبهذا، فإن ناصر عويس ينتحر أمام الجنود وعرفات هدد بالانتحار عندما رأى جنود الاحتلال أمامه. إسرائيل تقاثل مجموعة من المنتحرين إذن، لا فرق بين رئيسهم وأصغر طفل فيهم، أولئك الاطفال الذين يموتون "أثناء تبادل النيران".

يقول باولو فريري بهذا الصدد "يحتوي الغزو في نظرية العمل المعادي للحوار، كسمة أساسية، على "فاعل" يقوم بغزو شخص آخر ويحوّله إلى "شيء"..^{٩٦} أما تودوروف، فيصف علاقة الغازي القوي بالمستعمر الضعيف -عندما ينقطع الحوار بينهما- بأنها ثنائية "الجثة أو الرماد"، الغازي يريد خصمه جثة فيما يريد الضعيف أن يرى محتله مجرد رماد^{٩٧}. ويحلل فريري فكرة الغزو الثقافي فيصف الأقوياء أو المسيطرين الذين دعاهم "اللاعبون" بأنهم: "يقومون بإعداد محتوى الموضوعات لعملم من قيمهم وأيدلوجياتهم، ونقطة البدء لديهم هي عالمهم، الذي يدخلون من خلاله إلى عالم من يقومون بغزوهم.. وهم لا يحتاجون حتى للذهاب شخصياً إلى الثقافة التي يتم غزوها، لأن عملهم يتم بشكل متزايد عبر أدوات تكنولوجية، وذلك بفرض أنفسهم على الشعب الذي يحدد له دور المتفرج"^{٩٨}.

بهذا الصدد، فإننا نلاحظ كيفية تناول الصحف الإسرائيلية لاستعمال الدبابات والمجنزرات داخل جنين ونابلس والخليل، فقد قالت صحيفة يديعوت في عنوان رئيسي ما يلي "وقال سكان مخيمات اللاجئين وبلاطة أمس أنه في الأسابيع الثلاثة الأخيرة تحوّلت المخيمات إلى مصنع كبير لإنتاج العبوات الناسفة، وحسب محمد بلاص من مخيم جنين، فإن كل المخيم كان منشغلاً بإعداد العبوات والمتفجرات، وقال إنه حتى النساء والأطفال أعدوا العبوات في الشارع أمام أنظار الجميع.. وحاول

^{٩٥} يديعوت 2002/4/7

^{٩٦} باولو فريري، "نظرات في تربية المعذبين في الأرض"، ترجمة مازن الحسيني، دار التنوير للنشر والترجمة والتوزيع بالتعاون مع المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية، رام الله، 2003، ص156، وكذلك فرانتز فانون "معضبو الأرض" ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، بيروت، دار القلم، ص (45).

^{٩٧} تزفيتان تودوروف، "فتح أمريكا، مسألة الآخر"، سينا للنشر، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، 1992، ص205.

^{٩٨} فريري، مصدر سابق، ص171.

الجيش إخضاعهم بواسطة قصف المروحيات والدبابات، وفشلت محاولة هدم البيوت التي تستخدم كماوى للمطوبين حيث أن الجرافة الكبيرة والعريضة لم تستطع المرور بين الأزقة الضيقة..^{٩٩}. أما في مدينة نابلس، فقد عبّر العقيد أفيف كوخبي قائد كتيبة المظليين التي اقتحمت حي القصة في المدينة عن اعتقاله "بوقوع عشرات القتلى" على الرغم من تقدّم جنوده "عشرات الأمتار في القصة"^{١٠٠} فقط.

ولنا أن نتصور كيفية وقوع العشرات من الناس خلال التقدم عشرات الأمتار، وإذا كانت يديعوت أحررونوت تقول إن الجرافة العريضة لم تستطع المرور بين الأزقة، فماذا كانت النتيجة؟ ترد على ذلك كاتبة يسارية -بالصدفة- تدعى ياعيل باز ميلماد في مقال لها نشر بصحيفة معاريف تحت عنوان "ماذا لدينا لنخفيه" قالت فيه بالحرف الواحد: "لا يوجد أي سبب لعدم الإيمان بموقف الجيش المتمثل بأن هذه المعركة لم تتجاوز أي عرف، ناهيك عن أن الحديث لا يدور عن مجزرة. لقد دمرّ الجيش المنازل التي يختبئ فيها مطوبين، والمعاملة مع السكان جيدة. إذا كان الأمر كذلك، فما الذي لدينا لنخفيه؟"^{١٠١}.

أما الصحيح أيضاً، فهو أن إسرائيل رفضت لجنة تقصي الحقائق بشأن ما جرى في مخيم جنين، وأعلن الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان في وقت لاحق عن تفكيك اللجنة^{١٠٢}. هذا المستوى من اللغة هو الذي يعمل على "تشويه صورة العربي لدى الرأي العام، لاثارة الحقد والضغينة ضد العرب والحط من أخلاقهم وقدراتهم"^{١٠٣} وذلك من خلال مفهوم عام إطاره انعدام المساواة بين شعب وشعب، ولهذا تنعدم المساواة في المخاطبة أيضاً. جاء في صحيفة هآرتس وهي الصحيفة الأكثر اتزاناً- ما يلي بالحرف: نقلاً عن جندي إسرائيلي في مخيم جنين "في كل ثقب يختفي مخرب يحاول المسّ بك"^{١٠٤}، وقد يفهم هذا الكلام من جندي، ولكن الصحيفة جعلت كلام هذا الجندي عنواناً رئيسياً على الصفحة الأولى، وأضافت عليه فصار كما يلي "في كل ثقب يختفي مخرب أو عبوة". المقاتل الفلسطيني تحوّل إلى فأر أو حيوان مفترس يختفي في ثقب، ومن الواجب -والحالة هذه- أن

^{٩٩} يديعوت أحررونوت، 2002/4/8، تحت عنوان "الجيش يسيطر على معظم مخيم جنين"

^{١٠٠} المصدر السابق، تحت العنوان السابق أيضاً.

^{١٠١} ياعيل باز ميلماد. "ماذا لدينا لنخفيه"، معاريف، 2002/5/2.

^{١٠٢} جودت مناع، "الاحتلال الإسرائيلي والإعلام" الدعاية والافتناع الإسرائيلي خلال عملية حائط الفصل العنصري، منشورات بالميديا أنستيتيوت، رام الله، 2004، ص156.

^{١٠٣} درويش ناصر، "الفاشية الإسرائيلية"، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، 1990، ص102.

^{١٠٤} هآرتس، 2002/4/7.

يقوم الجندي الإسرائيلي بقتله. إن كلمة "تقب" هنا لم تأت مصادفة أو عفو الخاطر. يقول فرانز فانون في كتابه الشهير "معذبو الأرض" عن لغة المستعمر، نجد أنها اللغة المستعملة في وصف الحيوانات^{١٠٥}.

يذكر مؤلف كتاب "الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني" إن بيغن شبه الفلسطينيين بأنهم "حيوانات بقائمتين"، أما شارون فقد شبههم بأنهم "ذباب" و"جنادب"^{١٠٦}. يقول إيثن هابر في مقال له بصحيفة يديعوت أchronوت ما يلي "كل طليقة عادلة ومحققة، كل إغلاق صحيح ومناسب"^{١٠٧}. الحديث يدور إذن عن طليقة وإغلاق.

وشلومو غازيت يصف مخيم جنين بأنه "وكر" ^{١٠٨} أما القطاع فهو "وكر حشرات" ^{١٠٩}. أما تصريح الرئيس الروحي لحزب شاس الحاخام عوفاديا يوسف فهو غني عن التعريف حيث وصف العرب الفلسطينيين بأنهم حشرات وأفاع وأن الله ندم على خلقهم^{١١٠}. مرة أخرى، لغة تستعمل لوصف الحيوانات!!

هذا المستوى من اللغة المجند لصالح المؤسسة وروايتها الرسمية، دفعت حتى بعض الصحفيين الإسرائيليين إلى انتقادها بمرارة شديدة حيث قال أفيغ لافي في زاويته الأسبوعية "رأيت وسمعت" بصحيفة هآرتس "لو أن الأمر يتعلّق ببعض الصحفيين، لكانت إسرائيل قد أطلقت منذ زمن بعيد بعض الصواريخ ذات الرؤوس النووية على الدهيشة ورام الله، إن انعطاف العديد من الصحافيين إلى اليمين منذ بداية الحرب، بالإضافة إلى السطحية التي ميّزت العديد منهم، خلق إعلاماً متعطّشاً للدم لا مثيل له من قبل"^{١١١}.

أما سلمان ناطور فيقرر أن "معظم الصحفيين في وسائل الإعلام الإسرائيلي كانوا مجتدين في خدمة الخط الإعلامي الرسمي السياسي والعسكري"^{١١٢}.

^{١٠٥} فانون، مصدر سابق، ص39.

^{١٠٦} الأب مايكل برير، "الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني"، ترجمة زياد منى، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط3، ص234.

^{١٠٧} إيثن هابر "من قفيلية يرون إيران"، يديعوت أchronوت، 2002/4/7.

^{١٠٨} شلومو غازيت، "عبر جنين أو عبر بيت لحم"، يديعوت، 2002/4/30.

^{١٠٩} المصدر السابق.

^{١١٠} تصريح تناقلته وسائل الإعلام العربية والدولية في شهر تشرين الثاني من عام 2001.

^{١١١} أفيغ لافي، "رأيت وسمعت، هآرتس، 2000/11/10.

^{١١٢} سلمان ناطور، "الإعلام الإسرائيلي والانتفاضة، استنفار لصالح المؤسسة"، قضايا إسرائيلية، العدد الأول، مدار، رام الله،

شتاء 2001، ص48.

هذا المستوى من اللغة هو مستوى لا يرى في الطرف الآخر نداً ولا جديراً بالاحترام أو التقدير، وهو ينتقي المفردة بشكل مقصود ويريد منها الإفلات من قبضة الحقيقة والتاريخ والوقائع، يريد منها التبرير السياسي والأخلاقي والديماغوجي، فالأرض المحتلة هي "مناطق" - هكذا مجرد مناطق - والمقاوم هو "المخرب" و"المسلح" و"المطلوب" و"العنصر" و"القاتل" و"الإرهابي" و"الفلسطينيون في إسرائيل هم "عرب إسرائيل"^{١١٣}.

هذه اللغة يسميها الشاعر والكاتب مريد البرغوثي "باللغة المسمومة التي لا تعمل بدون الدور الحاسم الذي يلعبه إعلام مسموم"^{١١٤}.

أما الدكتور خليل ريناوي فيعتقد أن الإعلام الإسرائيلي المكتوب "يتصرّف بطريقة تعبوية في فترات الصراع الحادة، ويلعب دوراً مركزياً في تجريم الاحتجاج الفلسطيني"^{١١٥}.
والحقيقة هي أننا لا نتوقّع شيئاً آخر من هذا الإعلام، فهو في نهاية الأمر إعلام المحتل، ولكن هذا البحث يهدف ضمن أمور أخرى إلى إيضاح هذا الخطاب ومن ثم قراءته من خلال ادّعاءاته بالديمقراطية والسلام وحقوق الإنسان والاحتكام إلى الحقيقة، أن السلام لا يصنع مثلاً بين البشر والحيوانات؟! أو بين الأسياد والعبيد؟! نحن أمام مؤسسة حاكمة صنعت حولها نخبة فكرية واقتصادية تساندها من أجل خطاب تحقيري للطرف الآخر، من الصعب تجاوزه أو اختراقه في حالة استمراره بهذا الشكل. ونحن بهذا لا نتجنّى أو نبالغ، فهذه الدكتورّة عنات فيرست تصف الإعلام الإسرائيلي بأنه "كان شيئاً مع العرب وما يزال شيئاً"^{١١٦}.

المستوى الثاني:

هناك مستوى ثان من اللغة يذهب أبعد من المستوى السابق الذكر، فإذا كان ذلك المستوى يتمتع بنوع من الدهاء والمكر والتلون، أو يتسم بنوع من الموضوعية والدقة أو ادعاء بالحياد أو التشدق بالديمقراطية وحقوق الإنسان، فإن هذا المستوى الذي نحن بصددته يتخلى عن كل ذلك، إنه يكشف

^{١١٣} هذه مفردات هي من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها في مصدر واحد.

^{١١٤} مريد البرغوثي، "لغة الجنرالات القاتلة". وجهة نظر، عدد 51، القاهرة، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، ابريل 2003، ص35.

^{١١٥} د. خليل ريناوي، مصدر سابق، ص67.

^{١١٦} "وقائع يوم دراسي: شخصية العرب في الإعلام الإسرائيلي"، قضايا إسرائيلية، العدد 12/11، رام الله، مدار، صيف وخريف 2003، ص97.

أوراقه تماماً، ولا يختفي وراء ادعاءات أو يتملق أحداً، إنّه مستوى واضح يسمي الأشياء كما يريد وكما تفرض عليه أيديولوجيته أو مرجعياته الفكرية والدينية والسياسية. هذا المستوى له مفردات جديدة - بالإضافة إلى استعماله مفردات المستوى الأول الذي أشرنا إليه- وفي الفترة التي حددناها لهذا البحث فقد تم رصد اتجاهات هذا المستوى بما يلي:

أ. إنه خطاب غير اعتدائي إطلاقاً، ويمكن القول إنّه خطاب هجومي، صدامي، غير متردد ولا متلثم.

ب. إن العالم غبي لا يفهم الإسرائيليين ولا يدرك معاناتهم.

ت. إنّه مجرد الفلسطيني من كل دعاويه الروحية والسياسية، ويستكثر عليه المطالبة بأبسط الحقوق.

ث. إنّه ينطلق من مسلمات لا تقبل النقاش وحقائق ممنوع حتى الحوار حولها أو عنها.

ج. إنّه خطاب دقيق، مخابراتي، يعرف ماذا يقول ولماذا يقول ومتى يقول، إنّه خطاب مؤدج ذو رؤية تعتمد التفاصيل تماماً.

ح. أخيراً، هو خطاب تحريضي، تعبوي، يتجاوز الرواية الرسمية بكثير.

تجب الإشارة هنا، إلى أن مثل هذا المستوى، كالمستوى الذي سبقه، لم ينشأ فقط في المرحلة التي يتناولها هذا البحث، فهذه المستويات وكذلك المستويات الأخرى هي موجودة دائماً في الإعلام الإسرائيلي الذي يعكس جديلاً دائماً ومستمرّاً في المجتمع الإسرائيلي، وتعتبر من إحدى مزاياه الواضحة. المستوى الذي نقصده هو ما استطاع أن يبتكر مثل هذا الخبر المنشور في صحيفة يديعوت أحرونوت تحت عنوان "خطة فلسطينية: تسميم مصادر المياه بمواد كيماوية" جاء فيه: "كشفت مصدر أمني كبير النقاب عن أن الفلسطينيين صنعوا قنابل كيماوية وبيولوجية، كان من المفروض أن تمسّ بالمراكز السكانية الإسرائيلية وبمصادر المياه"^{١١٧}.

لنعدد هنا كمية الأغلاط والمغالطات في مثل هذا الخبر،

أ. إن هذا المصدر الأمني الكبير قد يكون "لا أحد"، أو قد يكون "أحداً" يقصد إثارة الفزع وتجنيد الناس، وهنا فإن الصحيفة تلعب دوراً آخر غير دور إعلام الجمهور وتزويده بالمعرفة.

ب. من غير المعروف لمن كشف هذا المصدر الأمني هذا الخبر.

ت. ومن غير المعروف متى قال هذا المصدر ما قاله.

ث. الفلسطينيون الذين يشار إليهم في هذا الخبر غامضون تماماً، وإذا عوّدتنا الصحف العبرية على الإشارة إلى "أفراد التنظيم" أو "رجال الرجوب" أو "الجهاد" أو "حماس"، فإن هذا الخبر -لسبب ما- يريد أن يضع أو يشير أو يتّهم كل الفلسطينيين بأنهم ضالعون في صنع قنابل كيماوية وبيولوجية. هذا الخبر يقول أو يدّعي أن كل فلسطيني ضالع بقنبلة كيماوية.

ج. ومن أجل غموض أكثر وتشكيك أعمق، يقول الخبر إن هذه القنابل كانت من المفروض أن تمسّ المراكز السكانية ومصادر المياه. أي أن هذه القنابل التي يتم صنعها لم تستخدم، ولم يرها أو يلمسها سوى المصدر الأمني الكبير الذي يستطيع قول ما يريد دون أن يناقشه أحد في روايته.

ولكن هذا الخبر لم ينته ولم تنته عجائبه، بل يستمر الخبر كالتالي: "وحسب المصادر، فإنه خلال اجتياح الجيش لمدن الضفة الغربية، في إطار عملية "السور الوافي" تم اكتشاف مخازن للقنابل، التي تسمى بلغة الجيش "القنابل الوسخة" والتي هي عملياً نوع من القنابل الكيماوية والبيولوجية. والقنابل كانت بدائية جداً رغم أن إصابتها قد تكون قاسية جداً، وفي هذا الأسبوع نشر أيضاً أن منظمة أسامة بن لادن "القاعدة" أنتجت قنابل "وسخة" مماثلة"^{١١٨}.

الخبر ما يزال يختار لغة خطيرة تدفع القارئ إلى اتّخاذ موقف سريع وحاسم، وذلك لما يلي:
أ. لم يذكر الخبر أين تم اكتشاف تلك المخابئ والمخازن - عندما تصاغ الأخبار الصحفية المحترفة لا بد من الإجابة على أسئلة من نوع: من، متى، ماذا، أين. وهذا عادة ما نفقده إلى حد ما في كثير من الأخبار المكتوبة في الصحافة الإسرائيلية.

ب. توليف الخبر ومعالجته بشكل يكاد يكون سطحياً إلى أبعد الحدود، فالقنابل البدائية جداً هي في ذات الوقت قاسية جداً، لنلاحظ التركيز على كلمة "جداً"، فكاتب الخبر يعرف أن الفلسطينيين لا يمتلكون تكنولوجيا متطورة ولا غير متطورة، لأنهم أغبياء ومتأخرون، ولهذا فإن قنابلهم "بدائية جداً"، ولكن يجب أن يدفع كاتب الخبر جمهور قرائه إلى

الخوف، ولهذا فإن هذه "البدائية جداً" هي "قاسية جداً"، كأفعى مثلاً أو قرد متوحّش هرب من حديقة، أو سهم أطلقه أحد سكان الغابات، السهم بدائي جداً ولكنه يسبب القتل أيضاً.
ت. ونأتي إلى جوهر هذه اللغة التحريضية التي تطوّع كل شيء من أجل غاياتها دون اعتبار لأي منطق أو عقل أو مقارنات منطقية، إذ يقول الخبر دون مقدّمات أن منظمة أسامة

^{١١٨} المصدر السابق.

بن لادن أنتجت قنابل وسخة مماثلة. أي أن الفلسطينيين والقاعدة قادرون على صنع قنابل وسخة "بدائية" ولكنها "قاسية"، إذن، ما دام العالم ضد القاعدة باعتبارها رمز الشر - كما حدده الرئيس الأمريكي بوش - فإن الفلسطينيين يشبهون القاعدة فعلاً وقولاً وهدفاً وأسلوباً. لا يمكن لقارئ مثل هذا الخبر إلا أن يستنتج أن الفلسطينيين هم إرهابيون لا يختلفون عن القاعدة، وأن الحرب عليهم وإبادتهم أو استئصالهم مبررة أخلاقياً وسياسياً ومدنياً.

ث. ليس في الخبر الذي قرأناه ما يدل على أنه خبر صحفي احترافي، فهو لا يشير أبداً إلى أمكنة أو أزمّة، بل هو مصاغ بطريقة "مكشوفة" وتكاد تكون مثيرة للضحك، جاء الخبر فقط من أجل أن يثير الفزع في نفس القارئ الإسرائيلي العادي، ومن أجل أن يجنّد ويحرّض على الفلسطينيين كلهم دون استثناء.

هذا المستوى الذي نقصده، مكشوف، لا يختفي ولا يخبئ مقاصده، تقول صحيفة "هتسوفيه" في افتتاحيتها "إن الواقع الذي تتعرّض إليه إسرائيل، إلى انتقادات من كل العالم، هو واقع غبي وغير محتمل، وما نحتاجه اليوم هو نقل المبادرة إلى أيدينا ونقل الحرب إلى أرض العدو"^{١١٩}. لنلاحظ هذه اللغة المطلقة: العالم كلّه ينتقد إسرائيل.. المسألة هنا أن هذا التوصيف ليس فقط غير صحيح وإنما يراد به تعزيز صورة "التفرد" و"الضحية" و"التميز" لدى القارئ وأن الذي يمتلك "الحقيقة" هو الإسرائيلي فقط، بينما العالم كلّه مجرد وغبي وغير محتمل. هنا اللغة تنكشف تماماً، تتعرّى، ولا تعود تجامل أحداً، ولهذا - كما تقول الصحيفة - يجب أن ننقل الحرب إلى أرض العدو، من هو العدو بالضبط في هذه الافتتاحية. أليس هو العالم الغبي وغير المحتمل!!

هذا المستوى من اللغة هو مستوى مخابراتي أيضاً، هو مخابراتي بالمعنى الحرفي للكلمة، يعرف ماذا يقول وعمن يقول وكيف يقول: تكتب يديعوت أحرونوت في خبر رئيسي "يوجد لدى الشاباك أكثر من مائة إفادة من نشطاء الإرهاب الفلسطيني تدين مروان البرغوثي.. وقد أفادوا في التحقيق معهم أن البرغوثي كان شريكاً مركزياً في العمليات التي نفّذها التنظيم"^{١٢٠}. أما معاريف، فتكتب في خبر رئيس أيضاً، ما يلي: "ويوجد في المكان - المقصود هي المقاطعة - أيضاً الحاج اسماعيل قائد جهاز الأمن الوطني الفلسطيني، وتوفيق الطيراوي، رئيس المخابرات العامة،

^{١١٩} هتسوفيه، الافتتاحية بعنوان "لننقل المبادرة إلى أيدينا" بتاريخ 2002/4/26.

^{١٢٠} يديعوت أحرونوت، 2002/4/24.

ويوجد لدى إسرائيل معلومات كثيرة حول تورط الطيرايوي بعمليات، ولكن المصدر أوضح أنه لا توجد نية لاعتقاله^{١٢١}.

كيف نقرأ هذين الخبرين اللذين صدرتا في يوم واحد هو 2002/4/24، وكيف يمكن لقارئ الصحيفة الإسرائيلي أن يقيّم المسألة، أم أن للمسألة وجهاً آخر يراد به القارئ الفلسطيني أو العربي، ليرى كيف يتم اللعب بالمصائر والأقدار. إن هذا المستوى من اللغة يمكن أن يوصف بأنه المستوى الدعائي، الحزبي، المخابراتي. مستوى لغة الإشاعة والترويح وبيث الفتن والروايات.

أريئيل شارون، وفي خطابه أمام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست، ألقى بتصريحه المشهور الذي جاء فيه "إن مصير نيتساريم كمصير تل أبيب". هذه الكلمات المطلقة النهائية التي لا تقبل المساومات ولا النقاشات، صارت عنواناً رئيسياً على الصفحة الأولى في "معاريف" على النحو الآتي: "شارون: مصير نيتساريم وكفار داروم كمصير نيغبيا وتل أبيب"^{١٢٢}.

وتضيف الصحيفة أن شارون قال أمام المؤتمر السنوي لمنظمة الايباك في الولايات المتحدة إن عملية السور الواقية فتحت باب الفرص لإعادة مسيرة السلام إلى مسار مختلف أكثر واقعية^{١٢٣}، في هذا الخطاب، الحرب العدوانية تتحول إلى "مسار واقعي" للسلام!

هذا المسار الواقعي للسلام يشرحه شارون على النحو التالي "بعد توقف مطلق للعنف والتحريض ستكون إسرائيل مستعدة للتوقيع على اتفاق مرحلي بعيد المدى يكون عملياً اتفاقاً لوقف إطلاق النار، وفي المستقبل البعيد ستكون إسرائيل مستعدة للموافقة على اتفاق دائم وتحديد حدود نهائية"^{١٢٤}.

يفهم من هذا الكلام أن إسرائيل هي المعتدي عليها وأن احتلالها للآخرين مبرر، ويجب على الشعب الذي يعاني من هذا الاحتلال أن يلتزموا الصمت وأن لا يمارسوا فعل المقاومة. شارون يقدم في لغته هذه صورة جديدة للاحتلال. الاحتلال يتحول إلى نعمة كبرى!!

عملياً، مع مَنْ يتحدث شارون، ومن هم الأشخاص الذين يتحدث عنهم؟!

ثم، لننتبه إلى هذه المفردات: مطلق، عنف، تحريض، اتفاق مرحلي، بعيد المدى، المستقبل البعيد، مستعدة للموافقة، اتفاق دائم..

إن هذا مستوى من الكلام يقصد أن يغيب حتى الإشارة للطرف المقابل، لغة أشبه بالمونولوج الداخلي، الذي لا يعترف بما هو خارجه.

^{١٢١} معاريف، 2002/4/24

^{١٢٢} المصدر السابق.

^{١٢٣} المصدر السابق.

^{١٢٤} المصدر السابق.

هذا المستوى من الكلام، هو الذي يدفع رئيس محلي الكانا الاستيطاني مارسيل غينيس الذي يرى في بناء حي استيطاني جديد "الرد الصهيوني الجيد والقوي جداً لحملة الشغب والتخريب التي يقوم بها المخربون الفلسطينيون"^{١٢٥}.

لننتبه إلى كلمة "جداً" هذه!؟

إن القاسم المشترك بين ما قاله شارون وما قاله غينيس هو إن مرجعية اللغة واحدة، فالفلسطيني هنا غير مرئي، أو أنه "شيء" يمكن التعامل معه بطريقة ما، ولكنه بالتأكيد لا يستحق حتى النقاش، وهو بدون إحساس أو مشاعر، فهو عنيف ومحرّض ومخرب، لم يصل بعد إلى مرحلة الإنسان. وهذه صحيفة هتسوفيه تهاجم لجنة تقصي الحقائق في أحداث جنين وتصفها بأنها "منحازة للفلسطينيين"^{١٢٦}.. اللجنة منحازة، حتى قبل أن تبدأ عملها!!

يصل هذا الخطاب إلى ذروة تجلّياته فيما أشار إليه مراسل صحيفة هآرتس لشئون القدس والاستيطان، نداف شرغاي، في معرض كلامه عن طرد المواطنين العرب من "حي الصديق شمعون" القريب من حيّ الشيخ جراح، حيث قال إن الشرطة الإسرائيلية رفضت دعوى المواطن سليمان درويش حجازي في ملكيته لثمانية عشر دونماً في الحي المذكور بحجة أن الطابو التركي الذي يحمله المواطن حجازي "مزور تماماً"^{١٢٧} والإثبات على ذلك أن الشرطة "وجدت بين الوثائق التي ضبطتها في بيت الشرق نسخ مزيفة"^{١٢٨}.

أكثر من ذلك، فقد أشار المراسل المذكور إلى أن المستوطنين في ذلك الحيّ يطالبون بتحقيق "العدالة التاريخية" وذلك عن طريق طرد المواطنين العرب من ذلك الحيّ لأنهم "نزحوا من حي القطمون عام 1948 والآن عليهم إخلاء منازلهم مرّة أخرى"^{١٢٩}

بروفيسور التاريخ في جامعة حيفا يوآف غلبر يلتقط خيط العدالة التاريخية، ليكتب ما يلي "لسنا محتلين أجانب في هذه الأرض، ولسنا مستوطنين استعماريين، لا في تل أبيب ولا في معاليه أدوميم"^{١٣٠}. هذا البروفيسير خير من يمثل هذا المستوى الثاني من اللغة التي نقصدها، إذ أن هذا الشخص المتبحّر في

^{١٢٥} يديعوت، "بدء مشروع البناء الأكبر في السامرة"، 2002/4/24.

^{١٢٦} هتسوفيه، الافتتاحية "اتفاق خاطئ"، 2002/4/23.

^{١٢٧} هآرتس، "اليمين يبادر إلى تواصل البؤر الاستيطانية حول البلدة القديمة" 2002/4/24.

^{١٢٨} المصدر السابق.

^{١٢٩} المصدر السابق.

^{١٣٠} يديعوت، يوآف غلبر، "يجب مساعدتهم في استبدال الأسطوانة" 2002/4/24.

التاريخ يطلب من اليسار الإسرائيلي أن يقنع الفلسطينيين بالبحث عن حل وسط، فيقول "الحل الوسط هو تنازل عن العدل"^{١٣١}.

وفي حالة سؤال هذا الشخص عن الأسباب التي قادت إلى هذا الطلب، يرد بالقول "لقد اشترت الأرض بالنقود من عائلات فلسطينية ثرية .. طورنا لغة وبنينا ثقافة"^{١٣٢}.

ولهذا أيضاً فإن "كل انتقادات موجهة إلى إسرائيل جديرة بأن تعتبر موقفاً لا سامياً"^{١٣٣}، هذا ما يقره يائير شيلغ بكل ثقة، ومن ثم يصل شيلغ إلى ما مفاده أن "توجّه أوروبا نحو إسرائيل عدائي جداً، وأحادي الجانب، لدرجة تثير الحاجة إلى تفسيرات مستقاة من درس النفس الجماعية هناك"^{١٣٤}. أوروبا مريضة!!

ثم لقد عدنا إلى "جداً" هذه!!

هذا الخطاب الذي يغلق الأبواب كلها لا يجد الحل -بعد التنازل عن العدل- إلا في ما يقوله أوربي دان "إن هذه الحملة الصعبة المستمرة للجيش الإسرائيلي قد أثبتت أن الحل العسكري هو الحل الوحيد للقضاء على الإرهاب الفلسطيني بخلاف ما يقره المحللون الإذاعيون الانهزاميون، وهو -أي الحل العسكري- ما أثبتته إسرائيل مراراً وتكراراً خلال الخمسين سنة الماضية"^{١٣٥}.

ولهذا تبشرنا صحيفة هنتسوفيه في افتتاحيتها بالقول "لا توجد إي إشارة ولو صغيرة جداً تشير إلى وجود فرصة لتسوية بين إسرائيل و م. ت. ف"^{١٣٦}.

عدنا إلى كلمة "جداً" هذه!!

هذا المستوى يستعمل "جداً" كثيراً.

إنه المستوى الذي يغرق في "الجانب الروحي الفاسق من ظواهر تغلغل العنصرية" بلغة أنطون شلحت^{١٣٧}، الذي يشير إلى بحث قام به الزوجان د. حاييم غوردون وريفكا غوردون حول "العنصرية في الصحافة الإسرائيلية" والذان توصلا إلى ما يلي^{١٣٨}:

^{١٣١} المصدر السابق.

^{١٣٢} المصدر السابق.

^{١٣٣} هارتس، يائير شيلغ، "مسؤولية أوروبا"، 2002/5/2

^{١٣٤} المصدر السابق.

^{١٣٥} جيروزالم بوست، أوربي دان، "لا أحد ينقذ عرفات"، 2002/5/2

^{١٣٦} هنتسوفيه، الافتتاحية "بعد رفع الحصار عن مكتب عرفات"، 2002/5/3

^{١٣٧} أنطون شلحت، "تقوب في الثقافة الآخروية"، مؤسسة الأسوار، عكا، 1998، ص34.

^{١٣٨} المصدر السابق، ص34.

- ◆ صحيفتا معاريف وهتسوفيه تقفان في طليعة الصحف العبرية في ميدان نشر أخبار ومقالات ينضح منه تحريض عنصري على العرب.
 - ◆ نشرت صحيفة هتسوفيه على مدى أربعة شهور –وهي الفترة التي تركّز البحث حولها- ستين مقالاً دوافعها عنصرية واضحة وهدفها التحريض على العرب، وقسم كبير منها كان مقالات افتتاحية^{١٣٩}.
 - ◆ كان هناك خلال فترة البحث 34 مقالاً في معاريف و 17 مقالاً في هآرتس وعدداً مماثلاً في يديعوت أحرونوت تغذي التوجهات العنصرية إزاء العرب.
- كان ذلك البحث في ذروة انتفاضة عام 1987، أما الاجتياح الإسرائيلي لمناطق السلطة الوطنية في نيسان من عام 2002، فقد كان ذروة تجند المؤسسة العسكرية والسياسية لضرب الشعب الفلسطيني بغطاء يكاد يكون كاملاً وشاملاً من أطراف عديدة.
- أخيراً، إذا كان المستوى الأول من اللغة الذي أشرنا إليه يتجند من أجل خدمة المؤسسة والنخبة الحاكمة، فإنّه –بسبب ظروف السياسة- قادر على التغير والتلون واستبدال المفردات والمصطلحات، وإذا كان يهدف دائماً إلى تحقير الفلسطيني وتجريده من دعاويه جميعاً، إلا أنه يستطيع أيضاً الانعطاف بدرجات متفاوتة (لنلاحظ مثلاً كيف اختلفت الإشارة إلى الفلسطيني وم. ت. ف وحتى حركة فتح)، أما المستوى الذي نحن بصده الآن فهو مستوى عقائدي لا يتغير ولا يغير من منطلقاته، فهو يرى في الفلسطينيين "ليسوا أكثر من مستأجرين غير شرعيين، وهم مصدر تهديد لعملية الانبعاث، وحقوقهم المدنية لا ترقى إلى مستوى الأمر السماوي الملزم"^{١٤٠}.
- بهذا يمكن لنا القول إن المستوى الأول هو مستوى اللغة السياسية ذات الأهداف قصيرة المدى وطويلته أيضاً. وهو مستوى قادر على أن يتكيف مع الظروف، فيما المستوى الثاني مستوى العقائد والأيدولوجيات التي عادة ما تكون ثابتة وواضحة ولا تتغير أساليبها أو مضامينها بسرعة.

المستوى الثالث:

هناك مستوى ثالث من اللغة يعترف بالفلسطيني وحقوقه، ويختلف مع التيار العريض والرؤية الرسمية، إلى حدود معينة وفي حدود معينة أيضاً. إن هذا المستوى يهدف إلى تذكير الإسرائيلي بأخلاقياته وإنسانيته ورفعته الروحية من خلال "الاعتراف" بالفلسطيني و"الاعتراف" بألامه ومشاعره كإنسان، هذا

^{١٣٩} ظهر البحث في مطلع عام 1990، كما يذكر شلحت في كتابه المذكور، ص36.

^{١٤٠} الأب برير، مصدر سابق، ص215.

المستوى يستعمل الفلسطيني كساحة اختبار ومحك عقائد وأخلاقيات، أي أن هذا المستوى يستعمل الفلسطيني ويشير إليه ويستخدمه بأسلوب متعالٍ ومترفع. ومن منطلق تعامل الأبيض مع "الأسود المحلي". هذا المستوى - في ذروة من ذراه- لا يريد من الفلسطيني سوى أن يذكره بإنسانيته ومشاعره الرفيعة والنبيلة.

هذا المستوى لا يكتبه اليساريون فقط بل كل أولئك الذين ينتمون إلى الحركات والآراء والاتجاهات الدينية والسياسية والليبرالية، وهم يتناولون الفلسطيني بطريقة "دعني ولا تلوّثني بك"، وبطريقة أن الإسرائيلي أخلاقي ومتنوّر ومتحضّر، والصراع الفلسطيني الإسرائيلي يؤخّر أو يخزّب أو يدمّر هذه المشاعر.

إن شعار "هم هناك، نحن هنا" الذي رفعه حزب العمل على لسان زعيمه ورئيس الوزراء السابق إيهود باراك هو ترجمة لهذا الشعار، هم يعرفون أن هذا الشعار غير صادق، وغير عملي، وغير واقعي، ولكنهم رفعوه حفاظاً على ما يسمّونه "يهودية الدولة".

هذا المستوى عريض ومتعدد ومتنوع ويتميز بالاضطراب في استخدام المفردات والمصطلحات، ذلك أن أهدافه لا تشبه لغته وسياساته لا تلتقي مع إعلامه- خير مثال على ذلك ما أورده بيني موريس حول بن غوريون الذي كان يتحدث خلف الأبواب المغلقة للمؤتمر الصهيوني عام 1937 عن فضائل ومزايا ترحيل عرب فلسطين، أما في النص المطبوع من خطابه فقد أسهب بكل رصانة حول سن قانون واحد للغريب والمواطن في ظل نظام عادل قائم على الحب الأخوي والمساواة الحقيقية ليكون نموذجاً ساطعاً يحتذى في العالم في كيفية معاملة الأقليات^{١٤١}.

هذا بالضبط هو مأزق هذا الخطاب، إن ما يستره لا يشبه ما يعلنه. لنقرأ ما يكتبه دافيد كيمش تحت عنوان "مليون مرّة، نعم للانفصال" يقول فيه "الفلسطينيون سيمارسون أعمال العنف ما دامت إسرائيل تمارس احتلالها، واسرائيل ستواصل احتلالها ما دام الفلسطينيون يمارسون العنف"^{١٤٢}. هنا تستعمل المفردات دون حرج وبشكل واضح، إسرائيل تحتل الفلسطينيين، فما الحل؟!

يقترح الكاتب "انسحاب الإسرائيليين من الأراضي الفلسطينية إلى خطوط دفاع أكثر متانة وتفكيك المستوطنات".^{١٤٣} ولكن لا يذهب بنا الخيال بعيداً، فالمستوطنات المقصودة هي "المستوطنات المعزولة في يهودا والسامرة"^{١٤٤} -ولنلاحظ الاضطراب في استعمال تعبيرَي الأراضي الفلسطينية ويهودا والسامرة

^{١٤١} بيني موريس "كيف كانت الوثائق الصهيونية تعد"، هآرتس، 1994/1/4.

^{١٤٢} دافيد كيمش "مليون مرّة، نعم للانفصال"، جروزالم بوست، 2002/4/29.

^{١٤٣} المصدر السابق.

^{١٤٤} المصدر السابق.

في ذات المقال- الهدف من هذه الخطة، يقول الكاتب "يمكن هذا الانسحاب الوجود اليهودي ودولته الديمقراطية وذلك بحمايتها من الخطوط الديموغرافية السلبية التي تحوّل سكانها بين النهر والبحر إلى أقلية"^{١٤٥}.

تبرير الإنسحاب من المستوطنات المعزولة لا علاقة له بالأخلاق، فيستدرك الكاتب هذا العنصر فيقول في نهاية مقالته بأن مثل هذه الخطة التي يقترحها مع آخرين "سوف تحررنا من العبء الأخلاقي بأن نحكم غيرنا"^{١٤٦}.

لكن هذه الخطة لا تفعل ذلك إطلاقاً، إن ما يقترحه الكاتب مجرد إعادة إنتاج لمفهوم الاحتلال، وهذا هو بالضبط مأزق هذه اللغة.

منحى مختلف -ولكن ضمن المستوى الذي نحن بصدده- نجده في مقال جيف هالبر تحت عنوان "بين القانون والعدالة" تناول فيه طرد سكان الشيخ جراح الفلسطينيين من منازلهم بالقوة فيقول "في هذه الحكاية يكمن أيضاً تناقض بين القانون والعدالة، عشرات الجمعيات تنشط "لإنقاذ" الأملاك اليهودية في القدس -التنصيص من الكاتب نفسه- ولكن ماذا بالنسبة للأملاك الفلسطينية في غربي المدينة، قبل عام 1948، كان هناك حوالي 40% من الأراضي والمنازل والمباني التجارية ملكاً للفلسطينيين، وإذا أضفنا إليها المساحة التي ضمت لغربي المدينة بعد عام 1948، تصبح النسبة 68%، وإذا كان لليهود حق باسترجاع ممتلكاتهم التي كانت لهم قبل عام 1948، فلماذا يحظر على الفلسطينيين أن يستعيدوا أملاكهم في الطالبية والحي الألماني والبقعة والمالحة وعين كارم وغيرها من الأماكن"^{١٤٧} في هذا النص تبرز مشكلة حقيقة، إذ لم يحدد لنا الكاتب عن أي قانون وعدالة يتحدث؟! هل هو القانون الإسرائيلي والعدالة الإسرائيلية، أم القانون والعدالة المطلقين؟!

من الواضح أن نوايا الكاتب طيبة إذ أنه يطلب مساواة الطرفين ضمن عدالة وقانون إسرائيلي، أو أنه يطالب أن يقترب القانون الإسرائيلي من شروط العدالة بمعناها الإنساني، ولهذا يطالب الكاتب بصوت عالٍ "من المحظور على الجهاز القضائي في دولة تدعي الديمقراطية أن "يخيط" القانون بهذه الصورة التمييزية إلى هذا الحد"^{١٤٨}، تجب الإشارة أيضاً إلى أن القوسين حول كلمة يخيط ليست من عندنا. في تلك اللحظة التي كان يكتب الكاتب فيها هذا المقال -أي في 2002/4/25- كان أكثر من ثلاثة ملايين تحت الحصار العسكري المباشر في مدن وقرى تعاني الخوف والجوع والقتل.

^{١٤٥} المصدر السابق.

^{١٤٦} المصدر السابق.

^{١٤٧} جيف هالبر، "بين القانون والعدالة"، كول هعير، 2002/4/26.

^{١٤٨} المصدر السابق.

الكاتب أيضاً يزعمه "الالتزام الأخلاقي تجاه اللاجئين الفلسطينيين" ^{١٤٩}، الذين طردوا من منازلهم في الشيخ جراح ورفضت إسرائيل إعادتهم إلى القسم الغربي من مدينة القدس، الأمر الذي يعني "ترانسفير وترحياًً جماعياً" ^{١٥٠}.

الكاتب الذي يعنى فيه انعدام العدالة واجحاف القانون، يبرأ بنفسه وبغيره من اليهود الرحماء أن يشبه عضو الكنيست المتطرف بني ألون أو أن يتحمل مغبة أعماله، فيقول "هل سيضمننا بني ألون جميعاً إلى أفعاله، سواء رغبتنا أم لم نرغب؟" ^{١٥١}.

الكاتب هنا يريد أن يفرق بين إسرائيلي طيب، وإسرائيلي رديء، بين مفهومين لإسرائيل التي يحبها ويريدها ويدافع عنها، إسرائيل ليست فيها بني ألون يطرد اللاجئين ولا يعترف بمسؤولية أخلاقية تجاههم.

هذه اللغة المزعجة لدى أطراف إسرائيلية مختلفة، ظهرت في استطلاع للرأي أجرته صحيفة معاريف في ذات اليوم الذي صدر فيه المقال السابق جاء فيه أن 58% من المستطلع آراؤهم يعنقدون أن نقد ممارسات الحكومة وعمليات الجيش الإسرائيلي يمسّ بأمن الدولة، وقال 48% من الجمهور المستطلع أنه يجب تقليص ظهور صحفيين "يساريين" يعارضون سياسة الحكومة. وقال 55% من هؤلاء أنه لا يجب تكريم المغنية المشهورة يافا يركوني لأنها تقوهت بحدّة ضد سياسة إسرائيل في الأراضي الفلسطينية وضد حملة السور الواقى، وفي المقابل فإن 52% من نفس الجمهور أيدّ الخطة السعودية (التي نصّت على انسحاب كامل مقابل تطبيع كامل) ^{١٥٢}

هذه الخطة التي دعت إليها هارتس في افتتاحيتها دون أن تسميها، وذلك بقولها "إن على حزب العمل أن يقدم بديلاً واضحاً لسياسة شارون التي تسعى إلى مواصلة التمسك بالمناطق والكفاح من أجل هذا البديل في الكنيست والساحة الجماهيرية، ويجب أن يتضمن رؤية لدولة تسعى إلى العيش بأمن في حدود 1967 والحفاظ على طابعها" ^{١٥٣}.

المشكلة هي في غموض المقصود بالمناطق والأمن والطابع. فما هي المناطق التي ستسحب منها إسرائيل وما هي إجراءات الأمن التي تقبل بها إسرائيل وما هو الطابع اليهودي لدولة لم تعرف اليهودي حتى هذه اللحظة، وما هو الطابع الذي ندعو إليه صحيفة مثل صحيفة هارتس؟!

^{١٤٩} المصدر السابق.

^{١٥٠} المصدر السابق.

^{١٥١} المصدر السابق.

^{١٥٢} استطلاع للرأي أجرته صحيفة معارف وماركت ووتش، ونشر بتاريخ 2002/2/26 تحت عنوان "يفقدون الصبر".

^{١٥٣} هارتس، الافتتاحية "بدون تأخير"، 2002/4/8

الفرق بين هذا المستوى والمستويات السابقة صراع في مركز "التجريد من الإنسانية" كما سماها نتان غوتمان في مقال له ذكر فيه أنه "إذا قال الإسرائيلي في وسائل الإعلام أن القمر مصنوع من الجبنة الخضراء فلن يشك أحد في كلامه، أما إذا قال الفلسطيني إن الشمس تشرق من الشرق فلن يقبل أحد ذلك"^{١٥٤}.

يعتقد الكاتب المذكور أن كلا الطرفين يرغب في تجريد صفة الإنسانية عن الآخر، إن مجرد الاعتراف بذلك لهو تغيير عميق في مبنى ومعنى لغة الإسرائيلي، الفلسطيني في هذا الخطاب يدخل -بشكل أو بآخر- إلى لغة الإسرائيلي دون أن يكون نداءً حقيقياً، فهو ما يزال بدائياً، غامضاً، مقرفاً، ويدمر الروح ولا يدرك الأبعاد ولا الأعماق -أول من أدخل الفلسطيني بصورة غير نمطية إلى نص روائي هو أ. ب. يهوشوع في رواية العاشق، وقد ظهر هذا الفلسطيني أقل حساسية وأقل تفهماً ويقظة^{١٥٥}.

لنأخذ مقالين نشرا في فترة هذا البحث وتناولتا ذات الموضوع، ألا وهو أحداث جنين. المقال الأول للكاتب يوبآب ليمور، الكاتب الدائم في صحيفة معاريف، أما الثاني فهو لأحد الجنود الذين شاركوا في اقتحام مخيم جنين، ويدعى نوعم عميت، أما المقال الأول فكان بعنوان "عبوة في كل بيت، سيارة وعربة"^{١٥٦}. أما المقال الثاني فكان تحت عنوان "صباح الخير يا جنين"^{١٥٧}.

لنلاحظ أولاً الفرق بين العنوانين.

أما مقال ليمور فهو ينضح بالرغبة في تجريد الفلسطيني من إنسانيته ودوافعه وآلامه ومشاعره وحقوقه، وهو مقال مليء بالادعاءات ويخلط ما بين الخبر الصحفي والتقرير والتحليل والرأي، فمثلاً يقول هذا الكاتب بكامل الثقة والوضوح "في بداية العملية -اقتحام جنين يقصد- نزع معظم المدنيين تقريباً عن المخيم، بعضهم طوعاً والبعض الآخر مكرهين بعد أن أبعدهم المخربون بتهديد السلاح من أجل استخدامها كأماكن لخوض المعارك مع جنود الاحتلال"^{١٥٨}. أما المقاومة في المخيم فقد وصفها الكاتب بأنها كانت بسبب البطالة، فالأولاد العاطلين عن العمل وجدوا وسيلة لتأدية واجبهم في القتال، وكذلك كسب عدة شواكل.

^{١٥٤} نتان غوتمان "يصدقون الإسرائيلي ولا يصدقون الفلسطيني حتى لو كان على حق، هآرتس 2002/4/8، والمقولة المذكورة اقتباس من كلام حسن عبد الرحمن ممثل المنظمة في الولايات المتحدة.

^{١٥٥} أ. ب. يهوشوع. العاشق. ترجمة محمد حمزة غنايم. دار الهدى. كفر قرع. 1985.

^{١٥٦} يوبآب ليمور، "عبوة في كل بيت، سيارة وعربة"، معاريف، 2002/4/8.

^{١٥٧} نوعم عميت، "صباح الخير يا جنين"، كول هزمان، 2002/4/26.

^{١٥٨} المصدر السابق.

فهم يصنعون العبوات الصغيرة التي تدعى "الكوع" ويبيعونها لقيادة المقاومة مقابل سبعة شواكل لكل كوع، وبالمناسبة تباع العبوة المماثلة في غزة بشيكل واحد^{١٥٩}.
والاستشهاديون -يقول الكاتب- "لا يوجد لديهم ما يخسرونه" ففي حالة استشهاد الواحد منهم فإن عائلته "ستتلقى 50 ألف دولار فضلاً عن العزة والكرامة".

كل تصرف تحت طائلة التجريم والتجريد من الدوافع الإنسانية، ولا كلمة واحدة عن جوهر المشكلة وسببها الحقيقي. وهذه لغة تنتمي إلى المستوى الثاني حيث الفلسطيني مجرد "مستأجر".
المقال الثاني ينتمي إلى اللغة في مستواها الثالث، لغة الاضطراب والارتباك، ما بين كونك قاتلاً أو ضحية، لغة الذين لا يعرفون أنفسهم جيداً، ولا يعرفون عدوهم أو "آخرهم" جيداً أيضاً.
وأدعي هنا أن هذا المقال "صباح الخير يا جنين" يعكس بوضوح تام تلك الحيرة وتلك الضبابية وذلك الغموض الذي نراه ونلمسه في هذا المستوى من اللغة. أولاً وقبل كل شيء، يجب أن نحدد أن كتاب أو منتجي هذه اللغة هم المحتلون، المسيطرون، الأقوياء، ونحن هنا ننقص مشاعرهم و رؤاهم وأفكارهم من خلال اضطرابهم الداخلي الذي يظهر في نصوصهم، هذا ما عبّر عنه الروائي الإسرائيلي أ. ب. يهوشوع عندما قال لمحاورة الفلسطيني "ساعدونا على الشفاء"^{١٦٠}.

يتحدث نوعم في مقاله هذه عن تجربته ومشاعره أثناء اقتحام مخيم جنين في شهر نيسان خلال ما سمي بعملية السور الواقى، وأراد أن يقول من خلال مقاله الطويلة تلك أن جيش الاحتلال كان جيشاً أخلاقياً وإنسانياً، وأنه لا يشبه الجيش الأمريكي في أفغانستان، ولكن الحكاية لم تتوقف هنا، لقد أراد نوعم أن يقول شيئاً آخر، لقد أراد أن يثبت أن ما جرى في المخيم كانت قتالاً بين جماعتين متكافئتين متعادلتين، وأن ما جرى مجرد قتال عنيف قام كل فريق بواجبه كما ينبغي.

أراد نوعم أن يرتفع بالضحية إلى مستوى القاتل.

أو أراد أن يساوي بينهما.

أو أراد أن يخنفي وراء التوازن" من أجل إخفاء مشاعر الخزي والعييب والخلل الأخلاقي.

ولكن رغم ذلك كله، فإن نوعم هذا لم يتخلص من لغة الاستعلاء والاستشراق ومحاولة "اكتشاف" الثقافة المحلية الغربية والعصية على الفهم.

^{١٥٩} المصدر السابق.

^{١٦٠} في لقاء أجراه معه الكاتب حسن خضر، في مجلة الكرمل، رام الله، عجم 84، 1999، 170.

يقول نوعم بهدوء وغموض "تقدّمنا نحو منزل آخر، إلا أن الطريقة في هذه المرّة كانت تقضي بالتقدم من خلال الجدران.." ^{١٦١}

إن التقدم من خلال الجدران يعني هدم البيوت وتخريبها وترويع الناس، وهو أسلوب أكثر من وحشي، ولكن نوعم يتجاوز كل ذلك.

يقول في موقع آخر "كان من السهل علينا التدبر مع العائلات المتبقية، لأنهم كانوا أناساً على ما يرام وتحدّث قسم كبير منهم اللغة العبرية". ^{١٦٢}

الضحية تشبه القاتل، وتحدث العبرية، وأما التفاصيل فهي الجحيم بعينه، ولكن نوعم لا يرى ولا يسمع سوى العبرية.

ويصل نوعم إلى الذروة في اصطدامه مع الواقع فيقول "لو كنا جيشاً آخر لكنا تراجعنا للخلف ومن ثم جلبنا دبابة لتدمر كل منزل" ^{١٦٣}.

وكأن ذلك لم يحصل!!

ثم يقول "كنا نقاتل بالسلح الخفيف مقابل السلح الخفيف" ^{١٦٤}.

يريد المحتل أن يحتفظ بالرفعة الأخلاقية أمام الضحية.

يلوي القوي الحقائق ويتخلى عن قوته من أجل أن يتساوى مع ضحيته.

أكثر من ذلك، يقول نوعم "المعركة كانت معركة مثل أي معركة في مكان آخر، جيش مقابل جيش" ^{١٦٥}.

المحتل هنا يريد أن يحارب ضحيته على مستوى الأخلاق ليخطف منه حتى هذا.

المحتل كان يعرف أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولكن في حالة اعترافه بهذا، فما الذي يبقى له؟

لا بد هنا من إضفاء "البطولة" على الضحية لترتفع إلى مستوى جلاها ليصبح القتال عادلاً، هذا ما يفعله نوعم بالضبط.

ولكن نوعم -المحتل والقوي- يشعر أنّه أسرف في إضفاء صفات القوة والبطولة على اعدائه، فيعود

إلى لغة الاستعلاء والاستشراق، فيستغرب صمودهم الطويل من دون طعام ولا نوم، فيعزي الأمر إلى

^{١٦١} عميت، مصدر سابق.

^{١٦٢} المصدر السابق.

^{١٦٣} المصدر السابق.

^{١٦٤} المصدر السابق.

^{١٦٥} المصدر السابق.

استماعهم إلى أشرطة الغناء الثوري فيقول "هذه الأشرطة منحتهم الكثير من القوة، وهذا ما دفعني للاشفاق عليهم"^{١٦٦}.

نوع، هنا، يتفوق على أعدائه أخلاقياً وروحياً.

ولكنه لا يكتفي بذلك، بل يذهب بعيداً في استعلائته واستشراقيته وتفوقه، فيقول "الشرق الأوسط هو مكان مقرف وأنا لا أطيق الدين، لم يكن أمام هؤلاء ما يفعلونه، قالوا لهم إن هناك بانتظارهم حياة أفضل، وأن اليهود أبناء زنى، وأنهم سيذهبون إلى الجنة، وقد حدثهم بالتأكيد عن الأمور التي سنفعلها، وقالوا لهم خذوا هذه الرصاصات والله هو الأكبر"^{١٦٧}.

إذن، النضال الفلسطيني قائم على مجرد خرافات ليس إلا.

الشرق الأوسط مقرف، ولهذا فإن نوع يربأ بنفسه عن هذا القرف، أو أن هذا القرف يوسخ إنسانيته. والدين لا يطاق لأنه يشوه صورة المحتل.

والفلسطينيون لم يكتشفوا بعد أن اليهود ليسوا أبناء زنى، ولم يكتشفوا بعد روعتهم وعذوبتهم وإنسانيته، وحتى يحدث ذلك، فإن نوع مضطر إلى أن يدخل المنازل من خلال جدرانها. وهناك من يحشو رؤوس الفلسطينيين بأكاذيب حول المحتلين ويعطونهم رصاصات بحجة أن الله هو الأكبر.

نوع هنا يبدي "تفهماً" لدوافع المقاومة الفلسطينية في مخيم جنين!!

المسألة برأي نوع مجرد سوء فهم للنوايا والمقاصد واستخدام الدين.

الاحتلال سوء فهم، والقتل أمر اضطراري.

وحتى يحافظ نوع على إنسانيته في مثل هذا الظرف المجنون يقول في آخر سطر من مقالته الطويلة

ما يلي "قال القائد لنا إن من سرق أو دمّر شيئاً إنما يلحق العار بالسرية والجيش والدولة كلها"^{١٦٨}

إذن، خرجت السرية وخرج الجيش وخرجت الدولة من مخيم جنين دون أن تسرق أو تدمر شيئاً وهكذا

لم يلحق العار بأحد!!

حافظ نوع على إنسانيته وإنسانية جيشه وإنسانية دولته.

فمن كان المتوحش إذن؟!

ومن لحق به العار إذن؟!

^{١٦٦}المصدر السابق.

^{١٦٧}المصدر السابق.

^{١٦٨}المصدر السابق.

كل ما فعله نوعم أنه أعترف "بصمود الفلسطيني" ليبرر قتله ومحاصرته وهدم منزله. أعتصم نوعم "بإنسانيته" وأضفى بعضاً من "الإنسانية" الغامضة على الفلسطيني ليبرر قتاله وتشريده وتدمير منازلهم.

إن التناقض المريع الذي يزدحم به مقال هذا الشخص هو بالضبط ما يميز مستوى اللغة الثالثة الذي نحن بصددده. ويبدو أنه لهذا السبب بالذات، فإن اليمين بكل أطرافه يهاجم أمثال هؤلاء بسبب "نفاقهم" و"كذبهم".

في هذا الصدد، تظهر تقارير عميره هس الصحفية الإسرائيلية التي تكتب في صحيفة هآرتس، وكذلك مقالات جدعون ليفي الكاتب في ذات الصحيفة. حيث يميلان عادة إلى إيلاء أهمية قصوى للطرف الآخر،^{١٦٩}، إن كانت أقوال المسؤولين أو المشاركين في الحدث وبشكل خاص الضحايا، عميره هس هي الوحيدة التي تنتشر أسماء الشهداء الفلسطينيين..^{١٦٩}

عميرة هس تسكن في رام الله وترى وتلمس حجم العذاب، وصحيفة هآرتس هي الصحيفة الوحيدة، ربما، التي تسمح بظهور أو نشر مقالات وآراء "للخبة" المختلفة عن الرواية الرسمية^{١٧٠}.

خلاصة:

تتميز اللغة المستخدمة في الصحف الإسرائيلية، وخاصة في الفترة التي يرصدها البحث بأنها ذات مستويات ثلاث، أما الأول فهو المستوى الذي يتبنى رؤية ورواية المؤسسة الحاكمة بحيث يتبنى مفرداتها وتوجهاتها وأهدافها، ولهذا، فإن هذا المستوى يلتقط من اللغة ما يسمح له بأن يهمل ويستبعد الفلسطيني وبيئته وبيئته، ولكنه على استعداد للتغيير والتبديل حسب تبدل الظروف والسياسات، ولهذا فهو مستوى مرن ومطاط ويحاول الظهور بمظهر الموضوعي والمتوازن ويدعي الديمقراطية وحقوق الإنسان ويسمح لنفسه أن يدافع عن الحرية والإنسانية من خلال اتهام الفلسطيني دائماً أنه ضد هذه القيم.

أما المستوى الثاني فهو مستوى عقائدي وأيديولوجي، صريح وواضح، ومنغلق على ذاته ولا يدعي ما يدعيه المستوى الأول، بل على العكس من ذلك فهو مستوى يتهم الجميع بعدم التفهم للمسألة اليهودية، والفلسطيني في هذا الخطاب "مشكلة" دينية وأيديولوجية. هذا المستوى قد يتحول إلى مستوى مخابراتي

^{١٦٩} سليمان ناطور، مصدر سابق، ص48.

^{١٧٠} جمال، مصدر سابق، ص17.

من منطلق عدم رغبته في التورط بالمسائل الجوهرية. إنه مستوى محكم وصريح ولا يخجل من تنصّله من كثير من القيم الليبرالية والديموقراطية بحجة أن الشريعة فوق كل شيء.

المستوى الثالث من اللغة هو مستوى يعترف باللسطيني من منطلق الرغبة في عدم استتثاره بشعور المظلوم أو الضحية، وهو مستوى يريد أن يتمحك بالقيم والرفعة الأخلاقية ولهذا يضطر إلى أن "ينصف" الفلسطيني ولكن تحت السقف الإسرائيلي ومعاييره، من منطلق اليأس منه في بعض الأحيان، ومن منطلق الرغبة في التساوي معها في أحيان أخرى.

السرد:

نعني بالسرد هنا ترتيب الحكاية، التقديم والتأخير، والحذف، والمعنى المضمّر، وطريقة العرض، ونوعية الخلفيات المساعدة التي تلقي الضوء على سياق الحدث، السرد الذي نعنيه هنا هو السياق العام الذي يوضع فيه الحدث حتى يعطي معنى إجمالياً معيّناً وذا هدف. أقصد أيضاً بهذا المفهوم : كيف تصاغ الحكاية بكليتها، من حيث التناول والمعالجة والترابط ونشوء العلاقات الخاصة بين فقراتها وسياقاتها.

فمثلاً، ينتبه المؤرخ آفي شلايم إلى ما يسميه "السرد القومي للتاريخ في عملية بناء الأمة" ^{١٧١}، التي تستخدم "الأساطير" وليس الحقائق.

إذن، السرد الحكائي أو الوصفي للحدث يقوم في إحدى جوانبه على التخيل أو التمني، وقد فرّق محمد حسنين هيكل بين "التصور" و"الصورة" عندما نسرّد ^{١٧٢}.

عملية السرد الحكائي عملية معقدة، لأنها تقوم ليس فقط على قراءة الواقع أو نقله بأمانة كما هو، وإنما تدخل على هذه العملية عوامل أخرى ذاتية وموضوعية أهمها: الهوى والمصلحة.

عندما أسرد حكاياتي، فإنني عملياً أستعمل لغتي بما تفرض عليّ من قيود وصياغات معينة وقوانين ومصطلحات جاهزة، كذلك أستعمل رموزي وعلاماتي الثقافية ومرجعياتي الدينية والتراثية. السرد إذن هو رؤيتي لِنفسي، وانصياعي لكل الصياغات والسياقات اللغوية والثقافية الجاهزة التي أمتلكها.

السرد، باعتباره خطاباً لغوياً، سيحملُ في ثناياه رؤيتي لِنفسي ورؤيتي للآخر -وهنا أقصد الآخر المستعمر أو المحتل- هذا الخطاب اللغوي نجد فيه عنصرين لا ثالث لهما: الأول أنه يقوم على

النّديّة، ولكن مفهوم النّديّة يؤدي إلى العنصر الثاني وهو: إما التماثل بمعنى إسقاط قيمي على الآخرين

أو الاختلاف عنهم بمعنى أنني أدنى أو أنني أعلى منهم ^{١٧٣}. هذا الأمر سيقود أحد طرفي العلاقة إلى

اعتبار الطرف الآخر "مجرد حالة ناقصة من الذات" ^{١٧٤}. ولأن العلاقة مع المستعمر والمستعمر هي

علاقة عنف في أغلب الأحيان، فإن هذه العلاقة تتميز باشمالها على التمييز والنفي والتدمير للبنى

الاقتصادية والعالم الروحي والتجريم والتجريد من الإنسانية وقيمها ^{١٧٥}.

إن علاقة من هذا النوع ستفترض وجود خطاب لغوي يستوعب كل هذه العناصر، من أجل تدعيمها

واستمرارها، ومنحها الشرعية كذلك.

^{١٧١} آفي شلايم. "الحائظ الحديدي"، ترجمة ناصر عفيفي، القاهرة، مؤسسة روز اليوسف، 1999، ص (39).

^{١٧٢} محمد حسنين هيكل، "الجيش والعروش"، القاهرة، دار الشروق، 1999، ص(16).

^{١٧٣} ثودوروف، مصدر سابق، ص (48).

^{١٧٤} المصدر السابق، ص(49).

^{١٧٥} قانون، مصدر سابق، والاقتباس هنا يتصرف من صفحات 34-38.

يفترض تودوروف ثلاثة مستويات للعلاقة مع الآخر هي:

١. المستوى القيمي، وفيه أرى الآخر أفضل مني أو أسوأ، أحبه أو لا أحبه، أو هو ند أو لا ند.

٢. المستوى العملي، وفيه أتبنى قيم الآخر أو أتوحد معه أو أشبهه بي أو أفرض عليه صورتني أو لا أبالي به.

٣. المستوى المعرفي حيث يكون السؤال الأهم في هذه العلاقة: كم أعرف عن هذا الآخر وكم أجهل^{١٧٦}.

ويقدر تقارب هذه المستويات أيضاً في الخطاب اللغوي السردي، إلا أنه يمكن تمييزها تماماً، فالمعرفة لا تشتمل على الحب والعكس صحيح أيضاً، "الاستعمار والحب والمعرفة أشكال سلوك مستقلة"^{١٧٧}. سنحاول هنا تلمس السرد الإعلامي الإسرائيلي في تضاعيف الخطاب اللغوي المكتوب في فترة هذا البحث، من خلال رؤيته لآخره الفلسطيني المستندة إلى رؤيته لنفسه في ذات الوقت. يكتب الزاعم الإسرائيلي ناحوم جولدمان، وهو المعروف بالاعتدال ولم يعمل في الصحافة أو الإعلام، هذا النص ليحدد الخطاب الذي نعنيه "... الاتجاه الوحيد الذي يمكن المضي فيه من الآن فصاعداً، ألا نحتمل شيئاً، وألا نتسامح في أي هجوم، وأن نحل أصعب العقد، وأن نصنع التاريخ من خلال جعل الحقائق تبدو بسيطة جداً، وقاهرة جداً، ومرضية جداً."^{١٧٨}.

إن جعل الحقائق تبدو بسيطة جداً وقاهرة جداً ومرضية جداً تحتاج إلى صياغات حكيمة وبالغة الحذق والبراعة، تحتاج عملياً إلى خطاب من نوع خاص جداً.

لنقرأ ما تكتبه أمونه ألون -الكاتبة اليمينية المعروفة- في يديعوت أحرونوت "لعل عرفات يتوق لأن تطرده إسرائيل من المناطق، فهو لا يستطيع البقاء في المقاطعة المهذمة، المحاطة بالجنود والدبابات الإسرائيلية، لقد ملّ من المكوث في مكتبه المكتظ بالكثير من الأشخاص وبقتلة الوزير زئيفي (والقاضي الفلسطيني الذي يفترض أن يقاضي هؤلاء القتلة).. ولعله يتوق بشدة إلى أن يصعد إلى طائرة، وأن يقلع كما يطيب له."^{١٧٩}

ولكن، لماذا تكتب أمونه هذا الكلام؟

هل تعبر عن شفقة حيال عرفات المحاصر والمريض!؟

^{١٧٦} تودوروف، مصدر سابق ص(197) -بتصرف.

^{١٧٧} المصدر السابق، ص197.

^{١٧٨} شلايم، مصدر سابق، ص44-45.

^{١٧٩} أمون ألون، "الوقت طويل لم يسمحوا له بالطيران"، يديعوت أحرونوت، 2002/4/24.

الجواب في ما تقول في ذات المقال "هو يعرف أنه انهى هذا الفصل من حياته السياسية المفتخرة، فقد تمكن من عمل الكثير منذ أن جلبه الإسرائيليون إلى المناطق في منصب القط الذي يفترض به أن يحافظ لهم على الحليب ولكن يخيل لي أن الموضوع قد استنفذ"^{١٨٠}.

كل المسألة إذن أن عرفات كان مجرد "قط يحرس للإسرائيليين الحليب، وأنه فشل في ذلك، ولهذا لا بد من السماح له بالطيران، وأن هذا "سيدخل السرور إلى قلبه ويعزز مكانته"^{١٨١}، كما تقول الكاتبة في ذات المقال.

أكثر من ذلك، تقول الكاتبة في آخر سطر من مقالها المشار إليه ما يلي بالحرف الواحد "وإذا ما حصلنا" على شخص أسوأ منه، فسوف نطرده هو الآخر أيضاً"^{١٨٢} (الأقواس حول كلمة حصلنا من الكاتبة).

إن المعرفة التي تقدمها أمونه ألون حول آخرها الفلسطيني لا تتعدى أنفها، وهي في علاقتها مع هذا الآخر إنما تحوِّله إلى مجرد كائن ليس إلا، فهي تتحدث عن حاجة هذا الكائن إلى الهواء والماء النظيفين، وهي تحول الزعيم الوطني الذي يعبر عن إرادة شعبية إلى مجرد "مستخدم" لم يؤد الدور المطلوب منه، ولهذا فهي ترى أن طرده -أي إخراجها من قفص حصاره- سيدخل السرور إلى قلبه. إن سرد المشكلة، أو الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، بهذا الشكل "البسيط والقاهر والمرضي" لهو مجرد جهل مطبق على المستوى المعرفي، أو عدم الرغبة في استعماله أو الاستناد عليه. هذا مستوى عملي من العلاقة مع الآخر، حيث لا أريد منه سوى أن أفرض رؤيتي ولغتي وتصوري وقيمي عليه. سرد بسيط وواضح ومفهوم. منطوق المستعمر المعهود!!

سرد آخر لذات الموضوع يقدمه لنا أوري دان، في صحيفة جيزورالم بوست "لقد أدرك الاثنان - بيغن وشارون- أن إسرائيل لن تستطيع التوصل إلى اتفاق سلام مع عرفات"^{١٨٣}.

لنلاحظ هنا مدى الجهل وانماط الحقائق التاريخية واختلاف المعايير حتى القيمة منها.

ولكن، لماذا لن تستطيع إسرائيل صنع سلام مع عرفات!؟

يجيب الكاتب المذكور بالحرف "لأن الكثيرين من الأبرياء الفلسطينيين والإسرائيليين يدفعون حياتهم لكي يقنعوا الولايات المتحدة وكل اليهود في دولة إسرائيل، بل وليقنعوا العالم أجمع، أن لعرفات غاية

^{١٨٠} المصدر السابق.

^{١٨١} المصدر السابق.

^{١٨٢} المصدر السابق.

^{١٨٣} أوري دان، "لا أحد ينقذ عرفات"، جيزورالم بوست، 2002/5/2

"إستراتيجية" واحدة، وهي القضاء على دولة إسرائيل اليهودية عن طريق الإرهاب والحصار السياسي الدولي^{١٨٤}.

هنا لم يعد عرفات "قطاً يحرس الحليب" بل يتحوّل إلى إرهابي يريد تدمير إسرائيل، ولهذا السبب فإن كثيراً من الفلسطينيين والإسرائيليين يدفعون حياتهم من أجل إقناع العالم بهذه الحقيقة. هذه هي رؤية أوري دان للصراع، والموت، والقتل.

منتهى المفهوم العملي في التعامل مع الآخر الفلسطيني منتهى الموضوع والصرامة. إن السرد الذي يقدمه أوري دان للصراع هو سرد إجرائي وليس جوهرياً، هو واقعي وليس تاريخياً، وهو قريب لا يريد أن يبتعد حتى لا يضيع في الحقائق والمسلمات.

المستوى العملي في فهم الآخر، يتجلى في هذا النص "بيد الجيش اليوم 110 مطلوباً يمكن ربطهم مباشرة بعمليات خطيرة وقعت في الأشهر الأخيرة، هذا لا يكفي، لأن هناك تحذيرات قوية بوقوع عمليات، صحيح أن حجم هذه التحذيرات انخفض إلى ثلث تلك التي وصلت في الأيام التي سبقت العملية -يقصد عملية السور الواقى-، ولكن هذا جاء على خلفية أن مستخدمي الإرهاب في حالة هزيمة وليس لأن الجيش نجح في القبض على العدد الأكبر من مستخدمي الإرهاب. وبالمناسبة، ثمة تحذيرات اليوم من عنصر جديد: الكثير من النساء الانتحاريات يقفن على الدور من أجل الصعود إلى السماء..^{١٨٥}.

المشكلة تتلخّص -بنظر الكاتب- في بقاء الجيش وعدم سرعته في إنهاء وتصفية الانتحاريين أو اعتقالهم. فهؤلاء جميعاً يقفون بالدور من أجل الصعود إلى السماء!!

لنلاحظ البعد الديني والتاريخي والميثولوجي، والسخرية المبطنة من معتقدات الآخر، وتسخيها واحتقارها.. العلاقة بين الانتحاري والسماء يجب أن تصحح من قبل "الجيش" الذي يمنع تحققها وإنجازها.

الانتحاريون يريدون الصعود إلى السماء.. أما الجيش فهو الطبيب المنقذ. هذا هو ما يفيد مثل هذا السرد لطبيعة الصراع!!

في مثل هذا السرد السابق، فإن العلاقة مع الآخر هي علاقة القوي بالضعيف، بمعنى أن التعامل مع الآخر لا يحل إلا من خلال الجندي أو الشرطي، "فالدركي والشرطي في المستعمرات هما المرجع القيم الشرعي الذي يستطيع المستعمر أن يرجع إليه وأن يخاطبه وهما الجهة التي تتطرق بلسان المستعمر

^{١٨٤} المصدر السابق.

^{١٨٥} أليكس فيشمان، "سباق الجيش" يديعوت أحرونوت، 2002/4/5.

ونظام الاضطهاد" ١٨٦، وكاتب المقال -الذي يحمل صورة مسبقة عن آخره الفلسطيني- يرى في عملية الانتحار نداءً من السماء، الغامض وغير المفهوم، وليست تعبيراً عن حالة خنق واضطهاد. سرد من نوع مختلف يقدمه لنا كاتب في صحيفة كول هعير يهدف من ورائه إلى تفسير الهدوء الذي ساد مدينة الخليل خلال عملية السور الواقى، أو على الأقل حتى 2002/4/26، وهو التاريخ الذي نشر فيه المقال الذي نحن بصددده، يقول هذا الكاتب "يتبين أن جيش الدفاع ترك مدينة الخليل إلى المرحلة الأخيرة مثلما فعل في السابق، ترك الجيش سكان المدينة يشاهدون الدمار الهائل الذي لحق بالمناطق الأخرى مستخدماً الدوافع الاقتصادية لاسكاتهم، لدى رؤساء العشائر الكبيرة في الخليل الخالية من اللاجئين، الكثير مما قد يخسرونه، التهديدات الصريحة بضرب مصالحهم الاقتصادية دفعت هؤلاء إلى ممارسة الضغوط على فتح وحماس في المدينة لتخفيض مستوى نشاطهم وعدم إعطاء الجيش ذريعة للقيام بالاجتياح" ١٨٧.

في هذا النص، يحاول الكاتب أن يقدم معرفته عن آخره الفلسطيني، من حيث التركيبة الاجتماعية والدوافع الاقتصادية، ولكن تبدو هذه المعرفة وسيلة للسيطرة وليس لمجرد الفهم أو المشاركة. فالكاتب يعتقد أن مدينة الخليل "أشبه بنموذج ابتدعه الإسرائيليون كنوع من حالة الاختبار لنوايا شارون بعيدة المدى" ١٨٨.

ولكن من أجل ماذا؟

يجيب الكاتب أنه في المرحلة التالية لتدمير السلطة الوطنية وطرد أو قتل عرفات، الأمر الذي سيتزامن مع طرد صدام حسين فإن ما سيجري هو "مصادرة المسألة الفلسطينية من أيدي م. ت. ف لننتقل إلى أطر أخرى" ١٨٩.

المستوى المعرفي الذي يتحدث فيه الكاتب ينتقل إلى المستوى العملي تماماً، بمعنى أن معرفة الإسرائيلي لآخره الفلسطيني لا تأتي ولا تكون إلا من أجل تصفيته أو طرده أو مصادرة قراره الوطني والإنساني. ولهذا السبب يضيف الكاتب مدينة الخليل التي ظلت المصانع فيها تعمل والبضائع تصل إلى أماكنها في إسرائيل، خلال عملية السور الواقى، بأنها مدينة نموذجية" ١٩٠.

النموذجي هو ما يريده الإسرائيلي..

^{١٨٦} قانون، مصدر سابق، ص(36).

^{١٨٧} أرنون ريغولر، "الخليل على سبيل المثال"، كول هعير، 2002/4/26.

^{١٨٨} المصدر السابق.

^{١٨٩} المصدر السابق.

^{١٩٠} المصدر السابق.

أخيراً نصل إلى ذروة النماذج للسرد الصحفي الإسرائيلي لنخلص إلى رسم ملامحه ومعطياته ودلالاته، إذ نعود إلى ما يكتبه أليكس فيشمان في أوسع صحيفة إسرائيلية انتشاراً، إذ يقول هذا الكاتب في مقال له نشر في 2002/4/26 ما يلي "من أجل فهم عمق ظاهرة الإرهاب في المناطق، فقد كشف الجيش عن "جامعة مفتوحة" للإرهاب، إذ تم اكتشاف أشرطة تدريب مهنية وزّعت في المناطق تدريب على إعداد العبوات بكل مادة كيماوية متوقّرة" ١٩١. (الأقواس حول جامعة مفتوحة في النص الأصلي). السرد الساخر للنضال الفلسطيني يصوّر المواطنين الفلسطينيين في الضفة والقطاع مجرد منتسبين في جامعة مفتوحة توزّع أشرطة لإعداد العبوات الناسفة. هكذا يشطب هذا السرد كل شيء لتبرير القتل والاعتقال.

ولكن فيشمان -الساخر- يمعن أكثر في سخريته واستهزائه بأخره الفلسطيني فيقول "خلال الهدنة الحالية سادت الفوضى لدى الجانب الفلسطيني، الأمر الذي يؤكد أنها ستكون أكثر وحشية في الجولة القادمة" ١٩٢.

ولكن الكاتب يقدم الأعداء للجنود الذين دمروا البنية التحتية للسلطة الوطنية الفلسطينية، فيقول "حين يسأل اليوم كبار الجيش والشاباك من هو الذي أصدر أوامر للجيش بتدمير البنى التحتية للسلطة الفلسطينية فإنهم يهزّون أكتافهم.. يتولد الانطباع كأن الجنود، على مستوى الميدان، هم الذين قرروا، حسب رأيهم، معالجة البنى التحتية للسلطة، بما في ذلك البنى المحوسبة المدنية" ١٩٣. في هذا النص، يقدم الكاتب ليس الأعداء فقط لأولئك الذين دمروا البنى المحوسبة، ولكنه يقدم لهم التبرير والطريقة المثلى للتهرّب وهو يبعد عنهم المسؤولية ويلقيها على مجرد جنود بلا أسماء. كبار المسؤولين لا يقومون سوى "بهزّ أكتافهم"، وهكذا فإن الدمار الهائل الذي لحق بالبنى التحتية للمجتمع الفلسطيني لا يعني شيئاً للإسرائيلي سوى "أن يهزّ كتفيه".

ولأن فيشمان مفتون بفكرة السباق بين صعود الانتحاري إلى السماء وبين سرعة الجيش في إنقاذه من نفسه، فهو يقول: "في إسرائيل تتميز الهدنة بسباق ضد الوقت في مسارين: الأول هو السباق بين الجدار والانتحاري.. والثاني هو مع لجنة تقصي الحقائق لأحداث جنين. هنا الحرب. هي حرب على الوعي" ١٩٤.

إن مثل هذا التصوير للأمور يدفع المرء إلى أشد حالات التعجب والدهشة، فهو الترجمة الحقيقية لما قاله ناحوم جولدمان قبل خمسين عاماً حول الحقائق القاهرة والبسيطة والمرضية.

^{١٩١} أليكس فيشمان، "السور الواقعي، المرحلة القادمة"، يديعوت أحرونوت، 2002/4/26.

^{١٩٢} المصدر السابق.

^{١٩٣} المصدر السابق.

^{١٩٤} المصدر السابق.

وفيشمان الذي يصور أكتاف كبار المسؤولين في الجيش وهي تهتز نفيًا أو استهزاءً أو لا مبالاة لتدمير البنى المحوسبة في السلطة، يقدم السبب الحقيقي لذلك، فيقول "يصعب على السلطة الفلسطينية اليوم العودة لتأدية مهماتها، وذلك بسبب المسّ بالبنى التحتية، ولأنها ببساطة لا تريد، إذ لا توجد حوافز" ١٩٥، هكذا يصور السلطة الفلسطينية وهكذا يحكم عليها وهكذا يريد أن يراها.

ولكن الكاتب يسترسل في رسم صورة خيالية للمجتمع الفلسطيني، لا وجود لها، إلا لأنه يريد ذلك، فيقول "إلى جانب قتل العملاء السابقين التي هي ظاهرة من ظواهر الفوضى مثل سرقة المواد الغذائية، هناك أيضاً ظاهرة سرقة القمح من قبل عصابات مسلحة، كما أن السلع التي أرسلت إلى المناطق كتبرعات من العالم العربي إلى السكان الفلسطينيين، فإنها تتسرّب إلى السوق الإسرائيلي بأثمان زهيدة، ويدور الحديث عن تعاون بين مجرمين، ولا يوجد في السلطة من يصدّهم عن ذلك" ١٩٦.

في مقال واحد، صور الكاتب آخره الفلسطيني على أنه يدرس في جامعة مفتوحة للإرهاب، وهم مجموعة من القتلة الذين يريدون الصعود إلى السماء، وهم لصوص ومجرمون ويسرقون المواد الغذائية ويبيعونها لأعدائهم الإسرائيليين، وهم قساة يقتلون العملاء السابقين.

إن مثل هذا النص المخادع والمخائل إنما يقوم على تصوير الواقع الذي خلقه الاستعمار دون أن يشير إلى نفسه. إن مثل هذا السرد المقصود والمصاغ بشكل يبدو معه مفهوماً وحاضراً وقوياً وعميقاً إنما هو خير نموذج للسرد الذي يلجأ إليه المستعمر أو المحتل في عمليات التبرير أو التسويغ لما يقوم به، فما دام السباق يجري بين الجدار والانتحاري، فإن من الطبيعي أن ننحاز إلى الجدار.. اللغة هنا مواربة، أما السياق السردى فيؤدي دور المخرج والمخرج لتحويل المحتل من قاتل إلى منقذ.

وفي دراسة للدكتور خليل ريناوي لمحتوى السرد الإخباري في الصحف الإسرائيلية التي غطت انتفاضة الأقصى، وجد أن محتوى هذا السرد يهدف إلى سحب الشرعية عن الفلسطينيين من جهة وتجريمهم من جهة أخرى، مشيراً في الوقت ذاته إلى أن محتوى تلك التقارير والأخبار لا تفرّق بين فلسطيني عام 48 وفلسطيني عام 1967، فالخط الأخضر يزول أثناء فترات الصراع والاحتجاج -كما يقول د. ريناوي- وهكذا، فإن مكانة المواطنة تبدو وكأنها تحمل وزناً قليلاً في نظر التغطية الإعلامية في فترات التوتر الشديد في المجتمعات التي تدعي الديمقراطية، والجدول التالي -الذي يقترحه د. ريناوي- يلخص آليات التغطية الإخبارية وكيفية التعبير عنها في الصحافة الإسرائيلية ١٩٧.

١٩٥ المصدر السابق.

١٩٦ المصدر السابق.

١٩٧ د. خليل ريناوي "التغطية الإعلامية الإسرائيلية للانتفاضة الأقصى"، قضايا إسرائيلية، عدد (6، 7)، رام الله، مدار، ربيع وصيف 2002، ص76-77.

آلية سحب الشرعية	كيفية التعبير عن ذلك في الصحف
عرض الجماعات المتعاقبة (الإسرائيليون وفلسطينيو 48 وفلسطينيو 67)	تصوير السلوك الإسرائيلي مقابل السلوك الفلسطيني على أنه ضروري من أجل القانون والنظام. استخدام مركز لأخبار الفوضى لتصوير الفلسطينيين بالمقارنة مع أخبار "النظام" الفلسطينيون في إسرائيل: الاحتجاج على سياسة الحكومة غير شرعي وهو خرق للنظام ومعارضة لوجود الدولة. كلا التجمعين الفلسطينيين يمثلان تهديداً للأمن وعدوانية في الصراع. العنف اليهودي ضد الجماعات الفلسطينية هو رد فعل على العنف الفلسطيني ضد اليهود
مصادر التقارير	يعتمد الصحفيون على الأمن والشرطة والجيش ومصادر المخابرات للحصول على الأخبار
التزام الصحفيين	تقبل الإعلام لنموذج الأمن يُحرر الدولة من التعامل مع الأسباب الحقيقية للمظاهرات الاعتماد على الصحفيين اليهود يعزز الصورة النمطية لكلا التجمعين الفلسطينيين.
عرض الأفعال التي تقوم بها التجمعات الفلسطينية	التغطية تعكس وجهة نظر المراسلين، تتسجم مع القراء اليهود. المبنى للمعلوم يستخدم لوصف الفلسطينيين الذين يستخدمون العنف، والمبنى للمجهول لوصف العنف الإسرائيلي ضد الفلسطينيين.
توازن التغطية	إعطاء تفاصيل مكثفة عن الضحايا اليهود بسبب العنف، بالمقارنة مع عدم وجود تفاصيل تقريباً حول الضحايا الفلسطينيين. الموضوعات الإخبارية عن العنف الذي يرتكبه اليهود والفلسطينيون يظهر حجماً أكبر للعنف الفلسطيني. الرد الفلسطيني نادراً ما يظهر في التغطية للمظاهرات الفلسطينية فيما يظهر الرد اليهودي أثناء تغطية المظاهرات اليهودية.
لوم الضحية	التركيز على التحريض الفلسطيني لقوات الأمن، بدلاً من العنف الإسرائيلي. لوم "الضحايا" الفلسطينيين على العنف الذي ترتكبه إسرائيل ضدهم. تضبيب الظروف التي تحيط بإصابة فلسطينيين أبرياء على يد الجيش الإسرائيلي. التقارير حول إصابة فلسطينيين أبرياء تضم أحياناً حول العنف الفلسطيني ضد الإسرائيليين أو تأكيدات بأن الفلسطينيين يبيتون الهجوم. المسؤولية عن الأحداث تعود إلى القيادة الفلسطينية، أي السلطة الوطنية أو أعضاء الكنيست العرب. التوكيد على العلاقة والتعاون بين التجمعين الفلسطينيين.

نخلص من هذا كله إلى القول إن ما تقدمه سياقات السرد الصحفي الإسرائيلي وخاصة في فترة البحث لا تهدف إلا إلى ذلك المستوى العملي في علاقتها مع آخرها الفلسطيني، وذلك من حيث فرض رؤيتها وتصورها وأهدافها عليه.

السياق السردى يهدف إلى رؤية الفلسطيني مهزوماً ومحطماً لأنه لا يملك هذه المقومات، وهو بحق "حالة ناقصة من الذات"، والمعرفة المدعاة التي تظهر في بعض سياقات هذا السرد إنما تهدف هي الأخرى للسيطرة على الآخر وليس لتفهمه أو التعاطف معه. أكثر من ذلك، فإن السياقات السردية تتميز بقدرتها على التبسيط والحذف والاعتماد، الأمر الذي يجعل منها متناقضة ومتهافئة وجاهلة، وهي تصاغ بطريقة لا تخلو من براعة لتبدو ذكية وحكيمة ولامعة.

العناوين:

عادة ما يلعب العنوان في الصحافة المكتوبة دور الموجّه أو الملخّص للخبر كله، وهناك من يجعله للإثارة أو الدهشة، أو يحمله نوعاً من التناقض، وقد يكون جزءاً من كلام أو اقتطاعاً من خطاب، ليس هناك حدود في استعمال العنوان من أجل شدّ القارئ أو جذب انتباهه¹⁹⁸، على أن لا يكون ذلك على حساب الواقع أو تزوير مضمون الخبر.

وفي الصحافة الإسرائيلية، تستعمل العناوين بطريقة تتجاوز مهمة العنوان الصحفية إلى مهمات أخرى وإلى دلالات أخرى، نجمل ملامح هذه الطريقة فيما يلي:

أولاً: العنوان أقل أهمية من مضمون الخبر:

في 2004/4/8 تنشر صحيفة يديعوت أحرونوت هذا العنوان "الجيش يسيطر على معظم مخيم اللاجئين في جنين". وعندما نقرأ الخبر لا نجد إشارة إلى العنوان، بل نجد أن الخبر يفيد بما يلي:

أ. إصابة ثمانية جنود في جنين ونابلس.

ب. مدى صعوبة السيطرة على الانتحاريين في المدينتين.

ت. استخدام الجيش للطائرات العمودية من أجل "إخضاع المطلوبين".

ث. استخدام الجرافة لدخول المخيم.

ج. هدم بيوت المطلوبين.

ح. الاعتقاد بأن عشرات القتلى من الفلسطينيين سقطوا جراء ذلك.

خ. التأكيد على مقتل 11 فلسطينياً منهم كبار المطلوبين.

¹⁹⁸توماس بيرري، "الصحافة اليوم" ترجمة مروان الجابري، بيروت: مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر 1985، ص (170)، وكذلك، د. جوني منصور "الاصطلاحية الانتقائية في الصحف العبرية في إسرائيل"، قضايا إسرائيلية، عدد 9، رام الله، مدار، شتاء 2003، ص(88)، حيث يقول حول عناوين الصحف الإسرائيلية بأن الصحف العبرية تميل إلى استعمال متنوع الاتجاهات في عناوين افتتاحياتها، فمنها ما هو بقصد إثارة القراء عاطفياً (كما تفعل صحيفتا يديعوت أحرونوت ومعاريف في حالات معينة) ومنها ما يميل إلى الدقة والاعتدال في اختيار العناوين، مع العلم أنها لا تخلو من تعاطف مع القارئ الإسرائيلي (كما تفعل هآرتس). ص88.

د. مقتل متعاونين.

إن خبراً فيه كل هذه الأحداث المتعلقة بالموت والحياة تستحق عنواناً أكثر اهتماماً وأكثر دقة أيضاً.. إن المحرر الذي اختار مثل هذا العنوان كان يريد أن يتجنب ذكر استخدام الطائرات والجرافات لاختراع مخيم جنين الذي لم يخضع (الخبر منشور في 4/8 أما السيطرة على المخيم فقد تمت في 4/18). كان المحرر على علم بما يجري في المخيم لأنه ذكر التفاصيل، ولكنه لم يكن يريد أن يضيء أو يكبر أو يضخم أو ينبه إلى ما يجري، كل ما هنالك أن الجيش يسيطر على معظم مخيم اللاجئين، حتى هذا الأمر كان كذباً، فلم يرد في الخبر أية إشارة إلى أن الجيش سيطر على أي جزء من المخيم.

ثانياً: العنوان تحريضي:

صحيفتان نشرتا عناوين تحريضية، تمتلئ بالإشارات والأياميات، الجريدة الأولى هي يديعوت احرونوت التي نشرت على صدر صفحتها الأولى وبالخط العريض "سجن القتل وعرفات حر"، كان ذلك بتاريخ 2002/5/2. وفي ذات اليوم نشرت صحيفة معاريف في عنوانها الرئيسي في ذات اليوم "إسرائيل: عرفات حر طليق". إن مثل هذا الاستعمال للعناوين يحمل في طياته الإدانة واللمز والغمز في شخص الرئيس عرفات، فهو لا يختلف عن القتل ولكنه -لسبب ما- حر طليق. إن الكرم اللغوي الذي تبديه كل من صحيفة معاريف وهتسوفيه في إطلاق صفتي "الحر والطيلاق" على عرفات إنما تعني الندم والحسرة والرغبة في عكس معناهما تماماً. لن يفكر القارئ كثيراً ليشعر أن عرفات قاتل مثل أولئك الذين قتلوا، ولكن الظرف غير موافٍ لسجنه أو اعتقاله.

ثالثاً: العنوان تعبوي:

بدت العناوين التي رصدناها في فترة البحث في معظم الصحف الإسرائيلية وكأنها شعارات يقصد منه التعبئة والتجنيد إلى أقصى الحدود. بدت تلك العناوين قصيرة وبسيطة ومباشرة، وكأنها شعارات تكتب على الجدران وليس على الصحف. وقد اخترنا هذه العناوين على سبيل المثال ليس إلا:

- "هذه لجنة يصعب إرضاؤها"، يديعوت أحرونوت، 2002/4/24، على الصفحة الرئيسية.
- "في كل ثقب يختفي مخرب أو عبوة"، هآرتس، 2002/4/7، على الصفحة الرئيسية.
- "الانهيار: شارون يرفع الحصار عن عرفات، ويتنازل عن تسليم قتلة زئيفي"، هتسوفيه، 2002/4/29، على الصفحة الرئيسية.

- "بوش ضغط، شارون استسلم، عرفات نجا"، يديعوت أحرونوت، 2002/4/29، على الصفحة الرئيسية.

- "الشارع لم ينتظر عرفات"، يديعوت أحرونوت، 2002/5/3 على الصفحة الرئيسية. هذه العناوين وأمثالها كثير تمثل قدراً كبيراً من التعبئة السياسية وتتجاوز مهمتها الإعلامية الموضوعية أو المعرفية، إنها عناوين تحمل إحياءات أيديولوجية وسياسية وحزبية، وهي تقوم بمهمة الشعار السياسي بدلاً من العنوان الصحفي الموضوعي.

رابعاً: عنوان كاذب لخبر كاذب.

يصل الأمر ببعض الصحف الإسرائيلية إلى اختلاق خبر أو فبركته، ولهذا تضع له عنواناً خطيراً يضخم الأخطار ويرعب الجمهور. خير مثال على ذلك هو الخبر الذي نشرته معاريف تحت عنوان كبير وعلى صفحتها الرئيسية بتاريخ 2002/5/3 وكان كالتالي "الشرطة تتأهب لعمليات كيماوية وبيولوجية"، ونقرأ تحت هذا العنوان ما يلي دون أن ننقص أو نزيد حرفاً "موجة جديدة من التحذيرات عن نية منظمات إرهابية تنفيذ عمليات كبيرة في إسرائيل، وحماس مسؤولة عن معظم الخطط للعمليات، في الأيام الأخيرة وصلت الشباك تحذيرات جديدة عن أن المنظمات الإرهابية تريد استئناف العمليات الانتحارية واطلاق النار داخل الخط الأخضر، والعمليات الأخرى التي تخشى منها أجهزة الأمن هي اختطاف جنود لأغراض المساومة للإفراج عن مروان البرغوثي المعتقل بيد إسرائيل وقتلة رجبم زئيفي المعتقلين في أريحا الآن.

وأعلنت حماس يوم أمس عن نيتها تنفيذ عدة عمليات ضد أهداف إسرائيلية في الأيام القريبة، وقال عبد العزيز الرنتيسي "المقاومة لا تزال قوية، وستنفذ عمليات في الأيام والأسابيع القريبة القادمة". وقال مصدر أمني كبير يوم أمس أن هدف المنظمات هو الإثبات بأن قاعدتها التنفيذية لا تزال فاعلة رغم موجة الاعتقالات في عملية السور الواقعي، وأن بمقدورها مواصلة ضرب إسرائيل، وقال المصدر إن المنظمات تفهم أيضاً أنه بالنسبة للسلطة الفلسطينية فلا يزال هناك خط أخضر للعمليات. إلى ذلك ستجتاز طواقم خاصة من وحدة الشرطة قريباً تدريبات على مكافحة الإرهاب في مناطق تعرّضت إلى مواد كيماوية وبيولوجية، وجاء ذلك في أعقاب استنتاجات الشرطة أن الخطر غير التقليدي تحوّل إلى خطر حسي في الآونة الأخيرة".

هذا كلام لا علاقة له بالصحافة، وإنما بالتعبئة والتحريض والكذب. فهذا الخبر ينقصه الكثير من أجل أن نطلق عليه اسم خبر. فليس هناك إجابات على أسئلة من نوع: من هو الذي صرّح بوجود خطر عمليات جديدة؟! ومتى وأين؟!

هذا الخبر هو تأليف أو فبركة من المحرر أو هو مكتوب من جهات أمنية أو سياسية أخرى، فالعنوان مثير وخطير ويشد القارئ "هناك عمليات كيميائية وبيولوجية" وعندما يقرأ الخبر سيفاجأ بأن هذه العمليات هي مجرد استنتاج لا علاقة لها بالواقع. المشكلة هنا أن أحداً لا يقرأ الخبر حتى نهايته، بل سيقراً عنواناً مثيراً وخطيراً فيتحول لديه إلى حقيقة. إن محرر الخبر كتب شيئاً من الذاكرة وهو يصلح تماماً في ظروف مثل الظروف التي نشر فيها هذا العنوان. كان الأهم في هذا الخبر هو عنوانه وليس دون ذلك. هذا ولم يذكر أحد من حركة حماس أو حركة فتح أو أية حركة فلسطينية أخرى عن نيتها القيام بهجوم كيميائي أو بيولوجي، لا علناً ولا سراً. لا صراحة ولا مواربة. ولكن إسرائيل التي أرادت أن تصوّر نفسها أمام الولايات المتحدة بأنهما يتعرّضان لذات الأغراض، تستطيع أن تفبرك مثل هذا العنوان الكاذب ذي المضمون الكاذب أيضاً.

إن ما قلناه سابقاً لا ينفى إن الصحف الإسرائيلية تستعمل العناوين كما ورد آنفاً، بل هي تقدّم عناوينها بدقة وموضوعية في مواضع أخرى لا تتعلّق بالشأن الفلسطيني، لقد تعرّضنا لتلك العناوين التي تتعلّق بالآخر الفلسطيني وفيها تلك الدلالات والإيحاءات، ولكن من أجل الدقة والموضوعية، فإن صحيفة هآرتس بالذات تستعمل عناوين تحاول فيها أن تكون موضوعية وليس فيها تحقير أو إهانة للفلسطيني، فمثلاً تضع هذه الصحيفة هذا العنوان على صدر صفحتها الرئيسية بتاريخ 2002/5/2 ورد فيه "مقتل سبعة فلسطينيين منهم ثلاثة أطفال في المناطق"، وهذا ما لم تفعله أي صحيفة أخرى صادرة في ذلك اليوم، دون أن تشير إلى المسؤول عن مقتل هؤلاء الأطفال، ولكنها في المقابل تنشر العنوان التالي بتاريخ 2002/4/7 "إصابة ثلاثة أطفال بنيران حزب الله في قرية الغجر" على صدر صفحتها الرئيسية. إن إغفال القاتل في العنوان الأول وذكره في العنوان الثاني يدل على أن الموضوعية لا تعني الحياد مطلقاً.

المصطلحات:

يسعى المحتل عادة إلى إعادة التسمية أو اختراعها، "فإطلاق الأسماء على الأشياء يساوي امتلاكها"^{١٩٩}، يسعى المحتل إلى منح الأشياء "أسماءها الصحيحة" -بلغة تودوروف- حافظاً بذلك الاسم الأصلي أو الاسم المحلي، من منطلق أن المحتل -عندما يواجه لغة السكان الأصليين- ينحصر في شكلين من أشكال السلوك، ممكنين، ويتم أحدهما الآخر: إما الاعتراف بها كلغة، ولكن مع رفض الاعتقاد بأنها مختلفة، أو الاعتراف باختلافها ولكن مع رفض الاعتراف بها على أنها لغة^{٢٠٠}. إن علاقة الحركة الصهيونية ومن ثم إسرائيل، باللغة العربية علاقة معقدة ومتشابكة وتقدم نموذجاً خاصاً لعلاقة المحتل بلغة المواطنين، وهو أمر يخرج عن هدف هذا البحث، ولكن ما يعيننا هنا هو ذلك الكم الهائل من المصطلحات التي أطلقتها الصحافة الإسرائيلية على الآخر الفلسطيني من خلال انتفاضة الأقصى، وبالذات في فترة الاجتياح الكبير الذي اطلقت عليه إسرائيل عملية "السور الواقى" في نيسان من عام 2002.

فالمصطلح يكتف المعنى ويحدد الهدف ويحذف غير المرغوب ويبرر ويعطي الدافعية ويوجّه الجهد إلى غايته، وفي مرحلة انتشار المصطلح وتعميمه فإنه قادر على أن يغطي ويعمي ويحجب الرؤية والرؤيا أيضاً.

المصطلح يحمل معه التحريض والتعبئة والتجنيد، وكذلك إعادة إنتاج الحقائق والوقائع بطريقة بارعة وذكية، ولا تسمح بإعادة الفحص أو التأكد أو حتى المقاومة، ومن هنا عجز الإعلام العربي وحتى الفلسطيني عن مقاومة هذا السيل الكبير من كم المصطلحات الإسرائيلية التي أصبحت عالمية^{٢٠١}. ومن أهم المصطلحات التي ظهرت في الفترة التي نحن بصددنا نجد ما يلي:

أ. عملية السور الواقى: بمعنى أن إعادة احتلال المناطق الفلسطينية من جديد وتحطيم مؤسسات السلطة الوطنية وقتل واعتقال المواطنين سيخلق سوراً واقياً لإسرائيل. هنا قلب للحقائق وتقديمها بصورة أخرى.

ب. مستخدمو الارهاب: مصطلح واسع وفضفاض وغامض، يراد منه تجريم الشعب الفلسطيني كله.

^{١٩٩} تودوروف، مصدر سابق ص33.

^{٢٠٠} المصدر السابق، ص36.

^{٢٠١} .. Greg philo and Mike Berry, Bad News From Israel, Glasgow University, Pluto press, 151

- ت. كبار التنظيم: مصطلح لا يفهم منه شيء، ويستعمل لدى اعتقال شخص أو عدة أشخاص خلال كل عملية اقتحام.
- ث. ضربات مختارة: مصطلح يقصد به الإشارة إلى كفاءة جيش الاحتلال في توجيه ضربات سريعة وقوية وناجحة ضد من تسميهم المطلوبين دون أن تمسّ "السكان الأبرياء"، وفي هذا المصطلح تشعر بأن الحجة جاهزة والدفاع مستعد لتبرئة جيش الاحتلال من أية أخطاء، أو أن جيش الاحتلال جيش لا يخترق القوانين والأعراف الإنسانية، فهو يختار أهدافه بدقة ولا يتجاوزها.
- ج. عاصمة الإرهاب: مصطلح أطلق على كل من نابلس ومخيم جنين إبان فترة الاجتياح لتبرير تدمير الموقعين.
- ح. القتل المستهدف والتصفية الموضوعية: مصطلحات استعملت لتجنّب استعمال مصطلح الاغتيال الذي سبب حرجاً كبيراً لإسرائيل^{٢٠٢}.
- خ. دخول المدن: مصطلح استعملته إسرائيل تجنّباً لمصطلح احتلال المدن.
- د. مقتل الفلسطينيين: مصطلح استعمل بديلاً عن مصطلح اغتيال الفلسطينيين.
- ذ. حرب على البيت: مصطلح استعمل لتبرير الاجتياح باعتبار أن الإسرائيليين يقاتلون هذه المرة دفاعاً عن بيوتهم، أو أنهم يقاتلون في وطنهم هذه المرة، وهذا يحدث للمرة الأولى.
- ر. تسهيلات: تعبير استعملته إسرائيل أثناء حصار المدن والقرى الفلسطينية للتعبير عن الإجراءات العسكرية الأقل صرامة وقسوة التي تفرضها على المواطنين. التسهيلات هنا هي إجراءات عسكرية أخرى.
- ز. تنازلات مؤلمة: تعبير إسرائيلي استعمل بكثرة خلال انتفاضة الأقصى، ويعني استعداد إسرائيل للتخلّي أو الانسحاب من بعض أجزاء الأراضي المحتلة.
- س. المدعو: عادة ما تشير إسرائيل إلى من تسميهم المطلوبين بلفظ "المدعو" وفي هذا نوع من التحقير والإهانة، وعادة ما يكون هذا المدعو قد قتل أو اغتيل.
- هذا فضلاً عن كم المصطلحات الشائعة التي تلوّكها الصحافة الإسرائيلية في وصف كل ما يتعلّق بالمواطن الفلسطيني والأرض الفلسطينية^{٢٠٣}، وسنضرب صفحاً عن ذكرها لشيوعها، ولكن لا بد من

^{٢٠٢} مناع، مصدر سابق، ص(66).

^{٢٠٣} أورد د. جوني منصور أصنافاً من المصطلحات المستعملة في الصحافة الإسرائيلية التي ظهرت في فترة البحث من أمثال: مصطلحات من التاريخ (شارون أتاتورك علي) ومصطلحات ساخرة (مثل عرفات يتمتع ببوليصة تأمين أميركية بأن لا يصاب بضرر) ومصطلحات وتعابير منتقاة في انتخابات الكنيست الـ 16 (مثل العشق التلفوني) ومصطلحات قوة وعنف وعسكرة (مثل قائمة تصفية أولية في حزب العمل) ومصطلحات من القاموس الإسرائيلي (مثل ازداد منحى التعلم في كيفية تحضير الأحزمة الناسفة*)، منصور، مصدر سابق، ص(93-96).

الإشارة إلى أن المصطلحات تتغير بتغير الزمن وطبيعة الصراع، فهناك مصطلحات ماتت ومصطلحات ولدت، والأهم أن كثيراً منها تسرب إلى وسائل الإعلام العربية دون أن يجد بديلاً أو تعريفاً جديداً. إن المصطلح يحدد طبيعة الصراع ونوع وجهته وأسلوبه.

المحذوف من النص:

النص السردى للخطاب الإعلامي الإسرائيلي يقدم دون اعتذار أو تأويل، إنه يبدو كاملاً ومقنعاً وحكيماً، باعتباره يقدم الحقائق عارية وقريبة، من خلال وضع مقدمات يخترعها ليصل بها إلى نتائج محددة ومعينة.

يبدو هذا السرد سطحياً وحتى طفولياً في تقديمه الحقائق والوقائع، إلى درجة يخيل معها انها مكتوبة من قبل أناس ساذجين ليقروها ساذجون.

لنقرأ هذا النص "النظر إلى خارطة الجليل يشير إلى المنطقة الحساسة وسط هذه المنطقة التي تمتد من التجمعات السكانية العربية في الجليل الغربي - الوسط (من ناحية فسوطة مروراً بأبو سنان فغوش حلب وحتى مجد الكروم) مروراً بالتجمعات السكانية في غوش سيغف (سخنين وعراية وطمرة وعلين وغيرها) وحتى منطقة الناصرة والتجمعات العربية المحيطة بها، نشأ تواصل جغرافي ذو أغلبية عربية مطلقة تتسبب في قطع أوصال الجليل، هذا القطاع يتصل في نهاية المطاف مع المناطق الخاضعة للسلطة الوطنية (عميق يزراويل يفصل بين المناطق إلا أنه منطقة زراعية قليلة السكان ولن يكون له أي معنى في ساعات الطوارئ)، "دولة إسرائيل قد تنهض ذات صباح فتجد أنها فقدت الجليل" ^{٢٠٤} هذا ما يقوله أحد الأطراف المركزية الضالعة في الأمر.

كاتباً هذا الكلام إما انهما لا يعرفان، وهذه مصيبة، وإما أنهما يعرفان وتلك كارثة أكبر، فكيف من الممكن أن يضيع الجليل من يد إسرائيل لمجرد أن ينشأ تواصل جغرافي بين الجليل وبين مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية في الشمال؟!

أية مقدمة تلك؟!

أي منطق هذا؟!

ولكنه المنطق الذي يراد له أن يصوغ حقيقة أخرى هي أن إسرائيل قد تستيقظ ذات صباح لتجد أن الجليل قد فقد إلى الأبد. إن هذا المنطق السطحي أيضاً هو المنطق الذي يحذف كل شيء من أجل أن يصوغ مقدمة من هذا النوع: "إن القرى العربية في الجليل تمتد لتلامس القرى في مناطق السلطة

^{٢٠٤} أمير جيلات ويوسي مزراحي، "الجليل يضيع منا"، معارف، 2002/4/5.

الوطنية الفلسطينية الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى أن يتحول الجليل إلى منطقة أخرى من مناطق السلطة الوطنية. وكذلك الإشارة القومية إلى أن العرب في إسرائيل هم أعداء يجب طردهم، فهم يشبهون العرب في المناطق المحتلة، وأن من الواجب تنظيف تلك المنطقة من أولئك العرب. هذا المنطق يحذف أن إسرائيل تحتل كل مناطق السلطة الوطنية. وهو منطق يحذف أن السلطة لا تستطيع أن تفعل شيئاً أقل بكثير من هذا. وهو منطق يحذف حقائق القوة والسياسة والأمن والاتفاقات وقوانين الجغرافيا أيضاً. وهو منطق يحرم العرب في إسرائيل - وهم أصحاب البلاد - من حقهم في المواطنة والعيش الكريم. وهو منطق يحذف أمراً بسيطاً وأساسياً وواضحاً وضوح الشمس وهو أن إسرائيل في تاريخ نشر هذا المقال وهو 2002/4/5 كانت تمنع ثلاثة ملايين فلسطيني من الحركة والعمل والتعليم وتلقي الخدمة الطبية والكهرباء والماء، فيكيف يمكن لهؤلاء أن يأخذوا الجليل؟ إن قارئ مثل هذا المقال سيتصور أن ما ذكر فيه حقائق ووقائع كثيرة، وأن من الممكن ذات يوم أن "تقفز" السلطة الوطنية لتأخذ الجليل من يد إسرائيل. لنلاحظ هنا أن عنوان المقال كان تعبويّاً وتحريضياً وحاذفاً لكثير من الحقائق.. "الجليل يضيع منا" .. في اللحظة التي كانت فيها إسرائيل تعيد احتلال الضفة الفلسطينية والقطاع مرة أخرى بعد عام 1967. إن الخطاب الإعلامي الإسرائيلي بمجمله يقوم على حذف الكثير من التاريخ والقوانين والمسلمات من أجل أن يصوغ سياقاً نصياً واقعياً "وقاهراً" -بلغة جولدمان-.

إن النص القاهر يتبدى في ما يلي: "يبدو هذا كمقطع مأخوذ من قصة هزلية مجنونة: سجانون بريطانيون مصحوبون بمراقبين أمريكيين يحرسون في سجن فلسطيني في أريحا خمسة قتلة من الجبهة الشعبية ومسؤول مالي واحد هو فؤاد الشوبكي (هذا دليل آخر على أن الأوضاع السخيفة تجد حلولاً سخيفة)، ولكن هذا المقطع مأخوذ من عرض جدي تسير فيه حكومة إسرائيل، بوعي وأعين مفتوحة، نحو تدويل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني"^{٢٠٥}.

بعيداً عن السخرية والمرارة التي تنضح بها السطور السابقة، إلا أن "المقدمة المنطقية" التي افترضها الكاتب الساخر هي مقدمة تحذف الكثير من أجل أن تقدم نفسها واثقة وحكيمة وساخرة إلى هذا الحد. هي مقدمة حذفت حقيقة كبرى تقول إن إسرائيل أقيمت بقرار دولي، وحذفت تلك المقدمة حقيقة أن الوضع الأكثر سخفاً هو وضع احتلال شعب كامل وفرض الحصار عليه. وهي مقدمة حذفت تماماً دوافع "القتلة الخمسة" لما أقدموا عليه.

^{٢٠٥} أليكس فيشمان "عشية تدويل الصراع"، يديعوت أحرونوت، 2002/4/29.

كل ما كان يعني الكاتب ومقدمته وسخريته هو أن يمنع تدويل الصراع لتبقى دولته تتحكم بشعب صغير يحتوي عدداً من القتلة يجب معاقبتهم وليس اعتقالهم بيد سجانين بريطانيين! عادة، لا يشار في الصحافة الإسرائيلية إلى جذور المشكلة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وعادة ما لا يشار إلى الأمور الجوهرية والأحداث المفصلية في هذا الصراع. وعلى الرغم من أن إسرائيل أقيمت بقرار من الأمم المتحدة عام 1947، في ظروف وملابسات غريبة، نقرأ ما يكتبه شلومو أفنيري، مدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية الأسبق، في اتهامات خطيرة يوجهها إلى تلك المنظمة الدولية التي أقامت إسرائيل ذات يوم، "كما وأقترح أن تقوم الأمم المتحدة بمطالبة موظفيها لشؤون اللاجئين، بتعهد يقر عدم مشاركتهم في الإرهاب بشكل مباشر أو غير مباشر، كما وتتبنى هذه التعهدات سياسة الطرد لكل من يرفض التوقيع عليها أو يقوم بانتهاكها"^{٢٠٦}.

وينهي الكاتب مقالته بهذا الطلب "إن من واجب الأمم المتحدة كمنظمة تسعى إلى إحلال السلام في العالم، أن تتطّف "بيتها" من الإرهاب، فكيف لك أن تحكم بين الناس وبداك ملطختان بالدماء حتى لو كان ذلك بشكل غير مباشر؟"^{٢٠٧}.

ما هي النصوص المحذوفة من النص السابق!؟

إن كاتب المقال يعرف تماماً أن إسرائيل هي من الدول المتهمه بارتكاب مجازر، وأنها لم تنفّذ أكثر من 28 قراراً لمجلس الأمن والجمعية العمومية، وأن صورتها كدولة مثيرة ومستفزة ومعزولة هي الصورة الأشهر لها.

إن كاتب المقال حذف هدفه الأساسي من هذا المقال المتمثّل في القول إن على الأمم المتحدة أن تطلب من موظفيها الفلسطينيين الساكنين في المخيمات أن يكتبوا تعهداً شخصياً يلتزمون فيه بعدم المشاركة في "أعمال ارهابية" ومن ضمن هذه الأعمال الشهادة على ما حدث في مخيم جنين من عمليات قتل وهدم.

النص المحذوف في النص السابق يقول إن إسرائيل باعتبار أن يديها غير ملطختين بالدماء -هي من يستطيع أن ينصح الأمم المتحدة بالتزام العرف والأخلاق والحكم بين الناس.. بكلمات أخرى.. إسرائيل هي قلعة الأخلاق وممثلةها، فيما فشلت الأمم المتحدة بهذا الدرس الإنساني.

^{٢٠٦} شلومو أفنيري، "الأمم المتحدة والإرهاب"، جيروزالم بوست، 2002/4/28.
^{٢٠٧} المصدر السابق.

التميط اللغوي:

يقدم الفلسطيني عادة في الخطاب الإعلامي الإسرائيلي على أنه "المخل بالنظام" و"الارهابي" و"المطلوب" و"عضو في تنظيم" والفلسطينيون هم "السكان المحليون" الذين يسكنون في "المناطق" وهم "نشطاء التنظيم، أو "مهندسو التفجيرات" أو "مهندسو العمليات الإرهابية" ويقدم وزراء السلطة على أنهم "مسؤولو ملفات".

وتستعذب الصحف الإسرائيلية الحديث دائماً عن "البنى التحتية للإرهاب في المناطق" و"تصفية المخربين".

كما أن هذه الصحف تتميز باستعمال مصطلح "معارك ضارية" و"قتال شديد" في وصف اجتياحات جيش الاحتلال للمدن والقرى الفلسطينية في عملية السور الواقية. هذا التمييط اللغوي في العلاقة مع الآخر الفلسطيني هي من الكثرة والشبوع بحيث لا يمكن حصرها في فترة البحث وحده، على الرغم من بعضها كان له قصب السبق في الاستعمال كتعبير "المخرب" و"الارهابي" و"القتال الضاري". (وكأن ما جرى هو مواجهة بين جيشين متكافئين من حيث العدد والعدة).

إن هذا التمييط -بمعنى ربط كل هذه المعاني بمفردة الفلسطيني أو أن تستدعي كلمة الفلسطيني كل هذه المعاني- يعني أن هناك صوتاً مهيمناً واحداً إلى حد كبير معني ببقاء الفلسطيني في صورة نموذجية لا تتغير رغم كل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويعني أيضاً أن حالة الحرب تدفع وسائل الاعلام في كل مكان -وليس في إسرائيل وحدها- إلى تصوير عدوها بطريقة معينة، وفي الحالة الإسرائيلية فإن صورة الفلسطيني لم تتغير بشكل جذري في الخطاب الإعلامي، حتى قبل قيام الدولة، الأمر الذي يدل على أن الصورة النموذجية المرسومة للفلسطيني هي صورة مريحة للوعي الإسرائيلي وللايديولوجيا المسيطرة ولذلك لا تراجع هذه الصورة ولا تُنتقد.

إن تمييط صورة الفلسطيني بهذا الشكل، يقوم عملياً بما يلي:

أ. التعميم. حيث يتحول الفلسطينيون جميعاً إلى صورة واحدة، كريهة وشريرة ولا يمكن الوثوق فيها.

ب. لا يسمح لهذه الصورة أن تتكلم وإذا تكلمت، فإن كلامها يقتطع من سياقه ليخدم المتوقع منها. (في فترة البحث لم نجد مقابلة واحدة مع فلسطيني يتحدث عن معاناة شعبه. (ومن خلال تجربة شخصية فقد أجرت صحيفة كول هعير لقاءً معي أجراه الصحفي عوفر ايلاني بعد انتهاء ما سمي بعملية السور الواقية ليسألني عن مواقف المثقفين الفلسطينيين

تجاه ما جرى، وقد نشر هذا الصحفي معظم ما قلته بعد شهر تقريباً من انتهاء ذلك الاجتياح الرهيب، ولا أنسى هنا أنه نشر صورتي كذلك).

ت. التتميط مريح وغير مقلق ويدعو إلى اختزال الأفراد والجماعات في مفاهيم بسيطة غير معقدة، الأمر الذي يعيق فهم الظواهر والسلوك والدوافع، ولهذا السبب فإن الخطاب الإعلامي الإسرائيلي عادة ما يخفي سياق الأحداث، بمعنى أن هذا الخطاب يقدم "الإرهابي الفلسطيني" ليس لأنه صاحب قضية ولكن لأنه يريد الصعود إلى السماء. ولماذا يرغب عرفات في أن يطرد من الضفة؟ لأنه فشل في مهمته كقط يحرس الحليب الإسرائيلي. ولماذا يصمد المقاتلون في مخيم جنين رغم انقطاع الماء وانعدام الأكل؟ لأنهم يسمعون إلى أشرطة وطنية!! وهكذا تقدم الأمور بدون سياقات حقيقية، بسبب رغبة في تتميط الفلسطيني إلى هذه الدرجة الساخنة.

ث. التتميط يخلق صورة العدو الشرير، ولهذا فالخطاب الإعلامي الإسرائيلي وخاصة في فترة هذا البحث، حوّل عرفات إلى "شخص غير ذي صلة" ثم إلى شخص إرهابي وكاذب ومخادع ويريد تدمير إسرائيل وهو يدفع الشعبين إلى الموت وهو الذي رفض العرض السخي الذي قدّمه باراك وكلينتون في كامب ديفيد. وهكذا تحول عرفات إلى نمط "الزعيم الشرير" الذي حملته الخطاب الإسرائيلي جميع المآسي والكوارث التي لحقت بالشعب الفلسطيني أولاً والإسرائيلي ثانياً.

ج. التتميط أيضاً يجعل من الصعب فهم ما يريده أو تريده الجماعة المنمطة، فما دام الفلسطيني مخللاً بالنظام وإرهابياً وقتلاً، فإن مطالبه تصبح غير معقولة ولا مقبولة ولا مفهومة أيضاً. وكما أننا نشك بنوايا اللص أو الكاذب، فإن صورة الإرهابي القاتل الملتصقة بالفلسطيني سيجعل من أفعاله أو مظاهر سلوكه مسألة غير قابلة للنقاش أو الفهم.

ح. التتميط أيضاً يعفينا من التعاطف مع الضحية، فالقاتل الإرهابي لن يتحوّل إلى ضحية أو من الصعب عليه أن يكون ضحية. الصورة النمطية تمنعنا من قبول تحولها إلى ضحية، ومن هنا فإن الصحف العبرية -في فترة البحث- لم تكن تشير إلى مقتل الفلسطينيين كضحايا وإنما كإرهابيين أو مطلوبين أو أنهم قتلوا بالصدفة أو قتلوا دون معرفة القاتل. (وقد أشرت فيما سبق إلى مثل هذه الحالات).

لهذه الأسباب مجتمعة، كان تمييط الفلسطينيين واختزاله في مركّب واحد لدى الإسرائيلي اليهودي عملية واعية تماماً لتسهيل التعامل معه، قتلاً وطرذاً وسلباً للحقوق وتجريداً وتجريماً لكل ما يمكن أن يقوم به للتعبير عن نفسه.

وحول ذلك، يقول د. جوني منصور ملخّصاً الأمر بما يلي: "ومهما حاولت وتحاول الصحف العبرية من السير في المسار الموضوعي، إلا أنها تحمل كليشيات وصوراً مسبقة حول العربي والفلسطيني والمسلم، ومرد ذلك هو رؤية الآخر في اليهودية كدين والإسرائيلية كدولة وثقافة حديثة، وبالتالي السعي إلى فرض وتعميم المصطلح و/ أو التعبير وكأنه حقيقي وواقعي"^{٢٠٨}.

^{٢٠٨} د. منصور، مصدر سابق، ص 101.

الخطاب الإعلامي الإسرائيلي وتجلياته في المستوى الثالث؛ البحث عن علاقة مغايرة:

أشرت فيما سبق إلى المستوى الثالث من مستويات اللغة في الخطاب الإعلامي الإسرائيلي في علاقته بالآخر الفلسطيني، وقلت إن هذا المستوى يعترف بالفلسطيني وحقوقه، وأنه يهدف إلى تكدير الإسرائيلي بأخلاقياته وإنسانيته ورفعته الروحية من خلال "الاعتراف" بالفلسطيني و"الاعتراف" بآلامه ومشاعره كإنسان.

هذا المستوى هو مستوى حقيقي وموجود ويأخذ هامشاً ملحوظاً في مجمل الخطاب الإعلامي الإسرائيلي، وفي فترة البحث -أي خلال اجتياح نيسان أو ما سمي إسرائيلياً بعملية السور الواقى- فإن المسألة تفجرت بالفعل من خلال "ضجة" أثارها رسالة إحدى المشتركات في جريدة هآرتس طلبت فيها إلغاء اشتراكها في الصحيفة، بسبب أن صحيفة "هآرتس" وصلت إلى مرحلة تحولت فيها معارضتها للصهيونية إلى "ظاهرة صحفية غبية وآثمة، حتى ولو كان من الصعب علي أن أقرر من من هاتين الصفتين تزعجني أكثر، فقد سئمت من كلاهما"^{٢٠٩}.

هذه الرسالة جرت وراءها سيلاً كبيراً من إلغاء الاشتراكات وصلت إلى "مكتب رئيس الحكومة وصوت إسرائيل حيث ذكر المسؤولون في المؤسسات أن الإلغاء جاء نتيجة ضائقة اقتصادية، ولكن ثمة إحساس وسط هيئة تحرير هآرتس أن هذا ليس هو السبب الحقيقي"^{٢١٠}.

التقرير الذي نشره صحفيان هما حاجي كراوس وأساف حايميم، في صحيفة معاريف حول موجة إلغاء الاشتراكات في صحيفة هآرتس -التي بدأت مع اندلاع انتفاضة الأقصى- يذكر صراحة أن هذه الموجة كانت بسبب "الخط اليساري الذي تتخذه الصحيفة في تقاريرها عن الأحداث في السنة والنصف"^{٢١١} وبسبب "الميل المؤيد للفلسطينيين الذي تبديه الصحيفة"^{٢١٢}، ولهذا فإن القراء يشعرون بأن "هذا أمر لا يمكن التسليم به"^{٢١٣}.

"جمعية حق الجمهور في المعرفة" الإسرائيلية رصدت التقارير التي تنشرها صحيفة هآرتس منذ اندلاع الانتفاضة وحتى تاريخ نشر المقال (2002/5/8)، ومن خلال التقرير يتضح أن احساس قراء الصحيفة المذكورة بميلها للفلسطينيين صحيح^{٢١٤}.

فقد ذكر التقرير ما يلي:

^{٢٠٩} حاجي كراوس وأساف حايميم "ما الذي يثير غضب قراء هآرتس"، معاريف، 2002/5/8.

^{٢١٠} المصدر السابق.

^{٢١١} المصدر السابق.

^{٢١٢} المصدر السابق.

^{٢١٣} المصدر السابق.

^{٢١٤} المصدر السابق.

- هناك 47 تقريراً صحفياً تناول حياة السكان الفلسطينيين في الضفة وقطاع غزة.
 - في المقابل نشرت أربعة تقارير صحفية في ذات الفترة حول مستوطنات الضفة وغزة.
 - 42 تقريراً من التقارير السابقة التي تدور حول حياة السكان الفلسطينيين كتبها الصحفي جدعون ليفي.
 - في زاويته الأسبوعية "منطقة الغسق" لجدعون ليفي، فإن المواضيع المركزية فيها تدور حول قصص شخصية للفلسطينيين في ضائقتهم الاقتصادية نتيجة للاغلاقات والحواجز التي يفرضها الجيش في المناطق، وكذلك الاتهامات من قبل الفلسطينيين ضد قوات الأمن الإسرائيلية وضد المستوطنين الذين يمنعون عبور النساء الحوامل للحواجز العسكرية ويطلقون النار باتجاه المستشفيات والمواطنين العزل ويبعدون الفلسطينيين عن أراضيهم^{٢١٥}. يخلص تقرير جمعية حق الجمهور في المعرفة إلى أن "عمل الصحيفة عمل غير مهني، والملحق يغطي بصورة منحازة الأحداث ويتجاهل ما يمر به المستوطنون"^{٢١٦}.
 - الصحفيان في معاريف يعلّقان على تقرير الجمعية المذكورة بالقول "تدل النتائج على عمل غير مهني للصحفي جدعون ليفي الذي يعتمد على رواية طرف واحد، ولا توجد لديه حيادية ولو تظاهرية"^{٢١٧}.
- وينتقد الصحفيان المذكوران صحيفة هآرتس لأنها "تستخدم بكثرة صوراً مروعة للجرحي، وتنتشر كثيراً عن موضوع رفض الخدمة وعن الجانب اليساري من الخارطة ويتجاهلون بشكل مطلق المعسكر اليميني، وكذلك فإن الصحيفة تتجاهل تجاهلاً مطلقاً المدن التي يطالها الإرهاب مثل الخضيرة والعفولة وبتانيا وقطاع المهاجرين الذين تضرروا كثيراً من العمليات"^{٢١٨}.
- هذا الواقع الذي نلمسه تبرره الدكتورة تمار ليبس بأمرين هما؛ أنه في حالة الحرب فلا يمكننا أن نطالب وسائل الإعلام بأكثر مما تقدر عليه بسبب الصراع الذي يعانيه الإعلامي في ذاته بين مشاعره الوطنية ومتطلبات المهنة الصحافية - وهذا ما ينكرونه علينا كفلسطينيين-، أما الأمر الثاني الذي تسوقه د. ليبس فهو ما طرأ من تغيير في السنوات الأخيرة في علاقة النظام بوسائل الإعلام، فالسيطرة أقل، والانفتاح على "الآخر" أكبر، وذلك بسبب التطور في البنية الإعلامية العالمية^{٢١٩}.

^{٢١٥} المصدر السابق.

^{٢١٦} المصدر السابق.

^{٢١٧} المصدر السابق.

^{٢١٨} المصدر السابق.

^{٢١٩} وقائع يوم دراسي، مصدر سابق، ص(99).

ولكني أعتقد أن التحريض على جريدة هآرتس، ورفض الجمهور -بنتيانه المركزي- للأسلوب الذي يكتب به جدعون ليفي وآخرون، لا يتعلق فقط بهذا الصراع بين المهنية والذاتية أو لمجرد "الانفتاح الأكبر على الآخر"، أعتقد أن الإسرائيلي اليهودي يريد احتكار دور "الضحية" إلى الأبد. إن هذا ما يمكن لي أن أسميه "طغيان الضحية"^{٢٢٠}، حيث ترى الضحية أن من حقها أن تمارس ما يحلو لها دون انتقاد وأن تطلب من الآخرين تقديسها وعدم محاسبتها بذات المقاييس التي يُحاسب بها الآخرون^{٢٢١}.

لهذا السبب يبدو جدعون ليفي مزعجاً وغير حيادي لأنه يخرج الإسرائيلي اليهودي من نمطية الضحية أو طغيانها، وهو -كما يكتب- يحاسب أعمال الإسرائيلي اليهودي بذات المعايير التي يحاسب بها كل البشر، وهو ما لا يرضي الجمهور الإسرائيلي العريض. إن المرأة التي ألغت إشتراكها في صحيفة هآرتس ادعت أن هذه الصحيفة تهاجم الصهيونية في ظاهرة "غبية وأثمة"، وهي بهذا تعكس عن ذلك البعد الذي نقصده من خلال كلمة "أثمة"، باعتبار أن هآرتس تقوم بعملية "تدنيس" للصورة المقدسة للضحية اليهودية.

إن إعادة الضحية إلى بشريتها وعاديتها ومحاسبتها بمقاييس العالم الأرضي وتخليصها من أوهامها وتورماتها الذهنية والسيكولوجية عملية صعبة ومعقدة ومكلفة أيضاً، ولهذا السبب فإن المستوى الثالث من اللغة الذي أشرت إليه سابقاً، يعني بشكل أو بآخر، الجدل مع الذات أو "حساب النفس"، كما يحلو للإسرائيلي اليهودي أن يقول، هذا المستوى من اللغة نوع أيضاً من المونولوج الداخلي حيث يراجع الإسرائيلي صورته ودوره وسلوكه وذلك من خلال التحديق في "آخره" النقيض أو العدو، حيث يتحول هذا النقيض إلى وسيلة تذكر بـ "الأنا".

وسنتناول في هذا المبحث أشكالاً أو رؤى مختلفة من هذا الخطاب تصب جميعاً في رؤية الضحية لنفسها وسلوكها من خلال تعاملها مع آخرها النقيض، لنرى ما يجمع بينها وما يفرق.

لنقرأ أولاً ما يكتبه جدعون ليفي الذي تحوّل بنظر الجمهور الإسرائيلي إلى "صحفي غير مهني ومتحيز".

في مقال له بعنوان "حربنا جميعاً" يكتب جدعون ليفي ما يلي "هذه ليست حرباً فرضها شارون -مفتعل الحروب- وإنما هي حربنا جميعاً، النداء الذي تعالَى في مظاهرة اليمين قبل شهر "تريد الحرب" هو نداء لم يسمع بمثله في أية دولة متحضرة متتورة، بعد ذلك تحول إلى نداء لنا جميعاً"^{٢٢٢}.

^{٢٢٠} التعبير -اللدقة العلمية- ليس من اختراعي، ولكنه ورد في حديث مع الشاعر والناقد زهير أبو شايب، الذي أشار إلى سلوك محدد -مرضي في بعض جوانبه- للضحية ودورها وسلوكها وردات فعلها.

^{٢٢١} تحدث حول هذه النقطة مطولاً.. الكاتب اليهودي الأمريكي الدكتور نورمان فنكلستين في كتابه "صناعة الهولوكوست" ترجمة سماح إدريس، دار الآداب، بيروت، 2001.

^{٢٢٢} جدعون ليفي، "حربنا جميعاً"، هآرتس، 2002/4/7.

جدعون ليفي يريد إسرائيل دولة لا تتنادي للحرب، ولا تدعو إليه، ويجلد الجميع لأنهم انضموا إلى هذه الدعوة، والجمهور الذي يجلده ليفي هو جمهور يستحق شارون ذلك أنه "يتبين أنه لا يوجد من يعبر عن تطلعات الجمهور الإسرائيلي أكثر من رئيس الحكومة"^{٢٢٣}.

وفي هذا المقال يعتقد ليفي أن شارون سحر جمهوره الذي يستحقه، كما أنه كتم أفواه وزرائه، وأن شارون استطاع خداع العالم بأن الفلسطينيين رفضوا عرض باراك السخي، وأنه يقوم باجتياح مناطق السلطة من أجل "ضربهم وتعليمهم درساً في دروس السلام"^{٢٢٤}.

ومن ثم يتحول ليفي إلى جلد جمهوره ويحاسبهم على اختيارهم الحرب فيسأل: "من الذي سيناضل ضد الإرهاب بعد أن سحقتنا كل الأذرع الأمنية الإسرائيلية؟ ومن هم "المسلحين" الذين تعتقلهم إسرائيل، وهل سيتحولون إلى مقاولي أمن لإسرائيل بعد أن يتم إخلاء سبيلهم؟! وما هي البنية التحتية للإرهاب إذا لم يكن الاحتلال واليأس والكراهية؟ كيف ستساعد هذه الضربة الساحقة التي أنزلناها بالفلسطينيين كلهم في حربنا ضد الإرهاب؟؟"^{٢٢٥}.

وإذا فهمنا هذه الأسئلة فلسطينياً، فإنها تعني ما يلي: إن الأجهزة الأمنية ضرورية لأمن إسرائيل وأن من الخطأ تدميرها، وأن من سيتم اعتقاله سيتحول إلى عدو وليس إلى صديق، وأن ضرب "كل" الفلسطينيين خاطئ. وأن الاحتلال هو السبب الأول للإرهاب ولا بد إذن من الانسحاب من المناطق الفلسطينية. بمعنى آخر، فإن جدعون ليفي يقترح -خلف سطره- إلى تقاسم الأمن مع الفلسطينيين من خلال إعطائهم استقلالاً أو كيانا ما. الاحتلال لم يعد يفيد، ولا يجدي -برأي جدعون- ولهذا فإن من المناسب والأفضل تقاسم المهمة الأمنية معهم. ومن العجب أن يغضب هذا الكلام التيار العريض للجمهور الإسرائيلي، فهذه الرؤية تجد لها أصداء مؤيدة لدى صانعي القرار الإسرائيليين. ولكن يبدو أن هذا ليس فقط ما أغضب الإسرائيليين، فجدعون ليفي يواصل في مقاله "عشرات الآلاف من الفلسطينيين سجناء في منازلهم بعد سنة ونصف يصعب احتمالها، مذعورين من أصوات الرصاص والدبابات والجنث التي ترد إلى المستشفيات في كل لحظة والاعتقالات الجماعية والتدمير الشامل، كل هذه الأمور تتمخض عن مشاعر شديدة جداً لأن العالم باستثناء أميركا عاد ينظر إلينا حالياً كأناس مجذومين"^{٢٢٦}.

هذا هو المرعب!!

^{٢٢٣} المصدر السابق.

^{٢٢٤} المصدر السابق.

^{٢٢٥} المصدر السابق.

^{٢٢٦} المصدر السابق.

أن يرى الإسرائيلي نفسه في مرآة آخره الفلسطيني، أن يتحول الفلسطيني إلى ضحية، وأن يتحول الإسرائيلي اليهودي إلى جلد، لا يرغب الإسرائيليون اليهود برؤية أنفسهم جلادين. وليفي لا يجامل في هذا ولا يجمل الأمور، بل يقدمها عارية كما هي. إنه مجرد الضحية اليهودية من قدسيته ونقائنها وهالة الشفقة والتميز المحيطة بها.

الخطاب الإعلامي الرسمي المجدد لصالح النخبة السياسية والاقتصادية في إسرائيل تصوّر الفلسطيني -على إطلاقه- على أنه الإرهابي والمعتدي ورافض السلام، فيأتي ليفي ليقول العكس، لهذا كان من الطبيعي أن يتعرّض وتتعرض صحيفته للانتقاد، ولهذا ينتبه جدعون إلى ما يدور حوله فيقول بمرارة شديدة "الصحافة في معظمها تعيش إحدى لحظات الدرك الأسفل لها، ليس في تجندها شبه المطلق، بل في أنها لا تتجح في توفير معلومات حقيقية للجمهور عما يجري على بعد ساعة من منازلها، صور نادرة من المعاناة التي يمر بها الفلسطينيون بنّتها القناة الثانية دفعت وزير الدفاع إلى إغلاق أبوابه بشكل مؤقت في وجه الصحفيين الإسرائيليين"^{٢٢٧}.

فما هو الأمر المقلق الحقيقي للكاتب الذي يتصف إسرائيلياً بعدم الموضوعية؟ يرد ليفي على هذا التساؤل بالقول "هذه فترة مظلمة في إسرائيل، قسم من الضرر الذي نلحقه بأنفسنا الآن لن يتم إصلاحه"^{٢٢٨}.

هذا ما يزعج ليفي!! صورة إسرائيل أولاً ونقاءها وأخلاقيتها ورفعته الروحية والإنسانية. ما يهمه هو ألا تتلوث إسرائيل وأن لا تفقد الطريق وأن لا تضيع المصباح!! ليفي يعترف باخطاء إسرائيل بحق الفلسطينيين من أجل أن تبقى إسرائيل ناصعة ومضيئة وأخلاقية. حتى هذا لا يسمح به تيار عريض من الإسرائيليين. فمن الممنوع الاعتراض على أفعال الضحية وممارساتها. هذا هو أفضل ما يعبر عن آراء ليفي واتجاهه ولغته في علاقته بآخره الفلسطيني، إنه يدرك أن الدم لا يؤدي إلا إلى الدم، وأن الكراهية لا تجني إلا الكراهية، هو يؤمن أن مصلحة إسرائيل تقضي "بالتعاون" و"التنسيق" و"التفاهم". هي رؤية صهيونية قديمة لم تجد المساحات ولا الإمكانيات لتعبر عن نفسها فيما مضى.

وفي صحيفة هآرتس أيضاً نجد رؤية ولغة مختلفة في تعاملها مع الفلسطينيين، وإذا كان جدعون ليفي يدعو -من خلال فهمنا لما كتب- إلى الإنسحاب من المناطق الفلسطينية والتنسيق معهم من أجل الأمن، فإن جدعون سامت -وهو معلق دائم في الصحيفة- يعتقد أن الحرب على الفلسطينيين بالطريقة

^{٢٢٧} المصدر السابق.

^{٢٢٨} المصدر السابق.

التي يقودها شارون غير مجدية، ولا تحقق أية نتائج. يقول سامت "شارون هو السائق الأكثر خطورة من بين أولئك الذين قادوا العربية الوطنية في أي وقت من الأوقات"^{٢٢٩}.

وفي إجابته على هذه المقدمة يقول المعلق "شارون يقود حرباً لا مثيل لها ضد الفلسطينيي ن، رئيس الحكومة دمر قسماً كبيراً مما يسميه البنية التحتية للإرهاب والتي تشمل في سياقها نمط الحياة الطبيعية لمئات الآلاف من الناس الأبرياء من كل ذنب. وفي نشاط غير عادي أخذ شارون يتصادم مع كل العالم لرفضه وقف إطلاق النار، وشريكه الخفي ياسر عرفات يساعده في ذلك، إلا أن شارون برهن على انه لا يريد أن يجرب وقف إطلاق النار حتى عندما يكون ذلك ممكناً.. ومسألة ماذا سيفعل بعد أن تُراق الدماء ويهدأ الغبار تظل مسألة غامضة وغير واضحة ومثيرة للكثير من الارتياح"^{٢٣٠}. أكثر من ذلك، يعتقد المعلق أن شارون "شعلة نارية في الهواء.. تتحول في التجربة الإسرائيلية إلى كابوس مفزع"^{٢٣١}.

أما بالنسبة للحرب على الفلسطينيين واجتياح مدنهم فإن سامت يعتقد أن ذلك مجرد عملية إرضاء لمشاعر الجمهور "التي لا أساس لها تجاه الفلسطينيين بالنسبة للكثيرين من الإسرائيليين الذي يقول لسان حالهم: لقد أدخلنا خازوقاً في أبو أبوهم"^{٢٣٢}.

يبدو سامت أقل حدة وتطرفاً في آرائه حيال الفلسطينيين، فهو يعتقد أن الحرب على الإرهاب الفلسطيني واجب، ولكن ليس بطريقة شارون، والفلسطينيون ليسوا كلهم مذنبين، ولكن عرفات مسؤول عن الإرهاب وبهذا فهو يساعد شارون في حربه الخطرة.

سامت يناقش الإسرائيليين، والشأن الفلسطيني تحوّل إلى شأن داخلي إسرائيلي، سامت لا يسأل عما يقوله الفلسطينيون وما يطلبونه، ولكنه يسأل عن الطريقة المثلى في التعاطي والتعامل مع المشكلة الفلسطينية، ولكن سؤاله الأهم يبقى هو السؤال الوجودي الإسرائيلي اليهودي، أو ما يعبر عنه بقلق شديد حيال شارون الذي يشكّل "علامة فارقة بخطوط قوية لسياسة منفلة لقائد يقود شعبه منذ مدة طويلة في طريق دماء لا جدوى منه، يجب أن يتم إيقاف هذا الشخص قبل أن يصبح الوقت متأخراً"^{٢٣٣}.

يبدو سامت غامضاً في أفكاره بمقاله هذا، ولكن الواضح أنه قلق جداً على مصير إسرائيل.

^{٢٢٩} جدعون سامت، لنوقف الرجل الذي يندفع في الضوء الأحمر، هآرتس، 2002/4/24.

^{٢٣٠} المصدر السابق.

^{٢٣١} المصدر السابق.

^{٢٣٢} المصدر السابق.

^{٢٣٣} المصدر السابق.

إن القلق على مصير إسرائيل هو الذي يدفع هؤلاء إلى التفكير بالآخر الفلسطيني، ولكن النظرة إلى هذا الآخر لا تبدو "إنسانية" بقدر ما تبدو "عملية" -بلغة تودوروف-

الصورة العملية لصنع السلام بين الشعبين يعبر عنها رون فونديك، أحد رؤساء مركز بيرس للسلام السابقين، في مقال له نشرته صحيفة يديعوت أحرونوت فيقول إن مؤسسته، ومن أجل خلق روابط اجتماعية وثقافية واقتصادية بين الشعبين، فقد أقام المركز "نشاطات طبية في خدمة السلام، ومن ضمن ذلك التعاون بين المستشفيات الفلسطينية والإسرائيلية، واستمرار مشروع إقليمي لإبادة الآفات الزراعية.. ونشاطات رياضية متعددة.."^{٢٣٤}.

ويهدف المركز -حسب كاتب المقال- إلى "إقامة دفيئة تكنولوجية مشتركة ولذلك أيضاً أقيم مراكز كمبيوتر توصل طلاباً من طرفي الخط الأخضر، وكجزء من التنقيف على قيم السلام نقيم ورشات مسرحية بمشاركة ممثلين من كلا الشعبين يعرضان على الشبيبة، السخافة في هذا الصراع العنيف والوسيلة الإنسانية لحلة"^{٢٣٥}.

أما الهدف الوحيد لهذا المركز -كما يقول الكاتب- "تقريب موعد السلام مع جيراننا والحيلولة دون موت مواطنين إسرائيليين وفلسطينيين يسقطون اليوم على مذبح المواجهة".

هذه الصورة العملية للسلام تبدو غامضة كل الغموض، وهي لا تقوى على النقاش، ولهذا فإن الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو صراع "سخيف" ويجب البحث عن حلول "إنسانية لحله"، والهدف هو "تقريب" موعد السلام وليس تحقيقه.

وتقريب الموعد يتطلب مشاريع مشتركة من ضمنها الكمبيوترات والتمثيلات والتعاون الطبي، المقال لا يتحدث عن حقوق وإنما عن مواعيد مستقبلية لصنع السلام.

هذه المواعيد يتحدث عنها شخص آخر يريد السلام مع الفلسطينيين، ولكن ليس الفلسطينيين الحاليين، وإنما "يحتاج السلام الحقيقي المبني على المفاوضات والمعاهدات الجادة إلى جيل جديد من الفلسطينيين المتحررين من الكراهية والخلل الاجتماعي الذي ينشئ الإرهاب"^{٢٣٦}.

في مثل هذا النص، فإن الضحية المفترضة لا تريد أن ترى أفعالها ولا أعمالها، وهي ترمي بالتهمة على نقيضها، فالارهاب لا ينشأ عن الاحتلال وإنما عن "الكراهية والخلل الاجتماعي"، ولهذا فإن الضحية المفترضة لا تطلب من نفسها أن تتغير، بل أن يتغير الطرف الآخر حتى يرقى إلى مستوى تلك الضحية. في هذا الصدد يذكر مؤلف كتاب "صناعة الهولوكست" كلاماً لكاتب يدعى جاكوب

^{٢٣٤} رون فونديك، "الهدف الوحيد لمركز بيرس للسلام"، يديعوت احرونوت، 2002/5/6.

^{٢٣٥} المصدر السابق.

^{٢٣٦} جيرالد شينيرغ، "السعي إلى الأمام بحذر". جيروزالم بوست، 2002/5/5.

نوزنر يقول فيه "إن شر الهولوكست الفريد لا يفرد اليهود بعيداً عن الآخرين فحسب، بل أيضاً يهب اليهود الأحقية بمطالبة هؤلاء الآخرين بأمر ما"^{٢٣٧}، وينقل مؤلف الكتاب المذكور قولاً آخر لكاتب آخر يصف فيه أن المحرقة اليهودية "رأسمال أخلاقي وعلى اليهود أن يطالبوا بالسيادة على هذه الملكية النفسية"^{٢٣٨}.

إن المطالبة بتغيير الفلسطينيين لصنع السلام دليل على رغبة الكاتب بالسلام، ولكن بشرط واحد ووحيد هو إزالة الفلسطينيين الحاليين، وهذه رؤية ولغة جديدة يعبر عنها المستوى الثالث من لغة الخطاب الإسرائيلي الذي يعترف بوجود الفلسطينيين، ولكن بشروطه الخاصة.

يضاف إلى هذه التجليات في التعبير عن العلاقة مع الآخر الفلسطيني ما نقرأه فيما يلي "يوجد خيار للأشخاص الذين يعيشون بين النهر والبحر، واستطلاعات الرأي العام تكشف أنهم يفهمون ومستعدون للعودة إلى النظام المربع، الذي يلزم كل معسكر بالتوصل إلى حل وسط يقضي بمواجهة الراضين من داخله، والزعماء غير القادرين على دفع ثمن المواجهة الداخلية هم المسؤولون عن سفك الدماء المتواصل"^{٢٣٩}.

هذا الكاتب لا يريد إزالة الفلسطينيين ولكن يطلب زعماء جدد -من الطرفين- قادرين على مواجهة المتعنتين والراضين لصنع السلام بين "النهر والبحر"، وهو يعتقد أن معظم الفلسطينيين والإسرائيليين واقعيون يؤمنون بإحلال السلام من خلال تسوية ما في المنطقة المذكورة، وهي إشارة قوية حقيقية على تغيير فعلي وحقيقي في النظرة الإسرائيلية للآخر الفلسطيني، بمعنى أن هناك أرضية للتسوية -دون الدخول في تفاصيلها، وهذا أحد ملامح هذا المستوى من الخطاب، فهو غير شجاع بما يكفي ليقول كل أوراقه-.

المشكلة التي يراها كاتب المقال لا تتعلق بوجود أرضية للتسوية لدى الجانبين، وإنما تتعلق بغياب القادة القادرين على تحقيق ذلك، وفي هذا إشارة إلى رفضه لقيادة شارون، وتعبير عن سلام غامض. الكاتب الصحفي عكيفا إدار يعود إلى تلك "الملكية النفسية" في علاقته بآخره الفلسطيني، ويضرب إدار على الوتر الحساس الذي يثير كل الإسرائيليين اليهود، فهو لا يستعمل "الرأسمال الأخلاقي" للضحية عندما يقول "ولكن يبدو أن كل شيء مباح لليهود بما في ذلك تشبيه اليهودي بالعصاة العاقين لإسرائيل، والصراخ في ذات الوقت ضد كل من يشبه اليهود بالعاقين لإسرائيل، وهم في الوقت ذاته

^{٢٣٧} فنكلشتين، مصدر سابق، ص 55.

^{٢٣٨} المصدر السابق، ص 55.

^{٢٣٩} آرييه أرنون، "بين معسكرين إلى أربعة"، يديعوت أحرونوت، 2002/5/7.

يقومون بإثارة الدنيا ضد عزف سيمفونية فاغنز، ولكنهم يستخفون بالأمر الذي أصدره ضابط برسم الأرقام على أذرع المعتقلين واعتباره خطأً فنياً^{٢٤٠}.

إدار يقوم هنا بعملية تذكر ومقارنة مخيفة ومرعبة بالنسبة للإسرائيلي اليهودي، في مثل هذا النص، فإن الضحية تدفع لأن ترى جانبها المظلم الذي لا تريد أن تراه أو تعترف به. إن وشم المعتقلين الفلسطينيين على أذرعهم، يذكر بحادثة رهيبة، فهل تحوّلت الضحية إلى تقليد جلادها؟؟

لهذا السبب اعتبرت تلك المرأة التي ألغت اشتراكها في هآرتس بأن هذه الصحيفة تقوم بعملية "آثمة". الإثم يعني التدنيس. والضحية وقعت في حبّ ذاتها فلم تعد ترى شيئاً خارجها.

ولهذا السبب، يكتب أروي أفنيري مقالاً استثنائياً في صحيفة "معاريف" بالذات، ليذكر أولئك الذين يرون في أنفسهم ضحايا مقدسة أن الأمر ليس كذلك، وأن ما يجري في الخارج مهم أيضاً، وأن على الضحية المفترضة ألا تتناقش نفسها فقط. هناك واقع لا بد من الانتباه إليه، يقول أفنيري "لن يظهر عميل فلسطيني، ولو ظهر سيقتل فوراً مثل بشير الجميل، عميل شارون في لبنان، السلطة الفلسطينية ستنتقل إلى عشرات ومئات قادة المنظمات السرية المحلية التي ستشن حملة انتقام تستمر لسنوات طويلة، ليس فقط في البلاد، بل في العالم كله. حياة الإسرائيليين ستتحول إلى جهنم، والعالم كله سيتحول إلى شارع بن يهودا المقدسي، لن تتعم أية سفارة، طائرة، أو سائح بالأمن"^{٢٤١}.

يُعبّر أفنيري بوضوح ساطع أن الفلسطينيين -مثل الشعوب المكافحة من أجل حقوقها- قادرون على أن يمنعوا أي عميل من الحكم والانفراد بالسلطة، على عكس كثيرين من الكتاب الصحفيين الإسرائيليين الذين راهنون على فكرة ظهور "الزعيم المعتدل" وهو التعبير الملطف عن "الزعيم العميل"^{٢٤٢}.

أروي أفنيري يسأل بصوت عالٍ أمام وعي هؤلاء الذين لا يرون سوى أنفسهم هذا السؤال: "أي روح حمقاء تملك الشعب الذي فضل المستوطنات على السلام والمصالحة حين قدما له على طبق من فضة؟ وكيف حصل أن وقف هذا الشعب جانبا حين اقترح عليه العالم العربي -ربما للمرة الأخيرة- سلاماً حقيقياً وعلاقات تطبيع؟"^{٢٤٣}.

^{٢٤٠} كيفا الإدار، "الحرب ستواصل حتى بوش"، هآرتس، 2002/4/4.

^{٢٤١} أروي أفنيري، "من هو موسى ومن هو فرعون"، معاريف، 2002/4/4.

^{٢٤٢} خير مثال على ذلك المحلل والخبير في الشؤون الفلسطينية في هآرتس داني روبنشتاين الذي عادة ما يشير إلى القيادات الفلسطينية بتصنيفات مثل "معتدل" و"غير معتدل"، مثلاً مقال للكاتب بعنوان "نهاية جهاز الأمن الوقائي" المنشور في هآرتس بتاريخ 2002/4/7 وفيه يظهر مدى خطأ إسرائيل بتدمير جهاز الأمن الوقائي لأنها بذلك تخسر عملياً الكثير على الصعيد الأمني، وقد التقيت بهذا الكاتب خلال برنامج تلفزيوني في القناة الثانية في تل أبيب عام 1998، وكان أول سؤال وجهه لي فيما إذا كنت من "الفلاحين" أو "الأفندية".

^{٢٤٣} أفنيري، مصدر سابق.

أفيري يفصح كل ذلك بالقول "الجمهور الذي أصغى للأقوال البائسة من السياسيين والصحفيين الذين رفضوا الاقتراح العربي وصقّوا لشارون عند خروجه في حملة دامية هي الأسوأ من كل ما سبقها"^{٢٤٤}. لا يخرج أفيري عن الخطوط العريضة التي يدعو إليها المستوى الثالث من الخطاب الإعلامي الإسرائيلي، ولكنه يبدو الأجرأ والأصرح والأكثر تعرية لآراء التيار العريض الذي يندفع في طريقه مؤمناً بصورة نمطية عن الآخر الفلسطيني وعن الصراع معه.

نستشهد أخيراً بقول يجمل كل هذه النقاشات المختلفة شكلاً والمتفقة مضموناً يضع المسألة بأولوياتها وعريها أيضاً "إضافة إلى قيام الحكومة بالكفاح ضد العمليات، فإنها تستطيع أن تعرض أفقاً يمنح الفلسطينيين مبرراً للتوصل إلى وقف إطلاق النار واستئناف المفاوضات من منطلق المحافظة على المصالح الأمنية الإسرائيلية والهوية اليهودية للدولة، وبدون هذا الأفق سنواصل الغرق داخل دائرة العنف والكراهية التي تجعل من المفاوضات الحتمية أصعب وأبعد، وفي ذات الوقت تعمق الكراهية الداخلية إلى أن تصبح خطراً على وجودنا"^{٢٤٥}.

إذن المسألة في نهايتها لا تتعلق بالآخر الفلسطيني وإنما "بالخطر على الوجود"، وليس هذا عيباً أو نقصاً، فمن المتوقع أن نسمعه وأن نرصده، ولم نكن نتوقع أن نسمع أو نقرأ غيره. فالجانبان الفلسطيني والإسرائيلي في صراع. ولكن ما قرأناه آنفاً يعبر عن جدل حقيقي في أوساط النخب الثقافية والسياسية حول التعامل مع الفلسطيني، ليس من حيث الاعتراف بحقوقه أو آلامه، وإنما من حيث تقليل المخاطر التي يسببها وجوده.

وهنا، لا بد أن أشير إلى أن النظرة إلى النخبة الثقافية الإسرائيلية اليهودية باعتبارها كلاً واحداً، أو نمطاً أو عقلية واحدة، هي نظرة خاطئة وقاصرة. ولا يمكن اختزالها بتعبير واحد، هناك اختلاف وهو اختلاف حقيقي يجد تعبيرات في النصوص التي أشرنا إليها على مدى هذا البحث^{٢٤٦}.

نخلص من ذلك كله إلى أن هذا المستوى من اللغة، الذي يتلمس شكل علاقة ما مع الآخر الفلسطيني تتميز بما يلي:

أولاً: إن مدى اعترافه بالفلسطيني مرتبط بالرغبة في إقناع الإسرائيلي نفسه بجدوى أو عدم جدوى أسلوب التعامل مع هذا الفلسطيني.

^{٢٤٤} المصدر السابق.

^{٢٤٥} روت غفزيون، "فخ الغموض"، يديعوت أحرونوت، 2002/4/4.

^{٢٤٦} يشير د. عبد الوهاب المسيري إلى ما يسميه "النموذج المركب" للشخصية اليهودية، والذي يعني عدم اختزال اليهودي في صهيونيته أو ماسونيته، بل يراه في تركيبته الإنسانية والعميقة وبمقدرته على الانتصار والانكسار وفي سياقاته المتعددة، ولهذا فهذا النموذج يسقط عن اليهودي عجائبيته وإعجازه وتفرد المسيري، اليد الخفية، دار الشروق، بيروت، 1998، ص(304).

ثانياً: يبدو الفلسطيني غير مبرأ من التهم المنسوبة إليه أو من بقايا الصورة النمطية التي ترسّبت بفعل الصراع والسنين والإعلام.

ثالثاً: إن جلد الذات ومحاسبة النفس الذي يتميز به هذا المستوى يأتي من منطلق الرغبة في الحفاظ على الصورة الأخلاقية والرفعة الروحية التي يجب أن تتميز بها جماعة اليهود، ومن هذا المنطلق يظهر الفلسطيني على خلفية هذا الجلد وهذا الحساب، يظهر كفضيحة أخلاقية أكثر منه كإنسان يطالب بحقوقه السياسية.

رابعاً: يهدف هذا المستوى إلى الحفاظ على دولة اليهود وجماعة اليهود ويخاف على مصيرها، وهو لا يقل في هذا عن باقي المستويات الأخرى، ولكن هذا الخطاب بالذات يتقدم من منطلق "المحتل الرحيم" الذي يريد أن يمنع الكراهية والحقد، أي أنه يريد البقاء في منطقة لا تكرهه وهو يعمل على إزالة أسباب تراكم هذه الكراهية.

خامساً: إن هذا المستوى من الخطاب، وإن كان يرغب في إقامة علاقة مع الآخر الفلسطيني، إلا أنها تظل علاقة غامضة بدون تفاصيل، ففي الوقت الذي يدعو البعض إلى الانسحاب من المناطق الفلسطينية، يدعو البعض الآخر إلى التنسيق والتعاون، فيما يدعو ثالث إلى "مفاوضات جدية"، ورابع إلى إزالة الجيل الحالي وخامس إلى قمع المتعصّبين.. وهكذا..

خلاصة البحث

إذا كانت وظيفة الإعلام في النظام الديمقراطي هي توفير منبر للمواقف المختلفة ونشر معطيات دقيقة وموثوقة وكشف إخفاقات السلطة، فإن الإعلام الإسرائيلي فشل في أن يكون كذلك إلى حد كبير وخاصة أثناء تغطية انتفاضة الأقصى، إذ أن هذا الإعلام "اعتمد المعلومات الموجهة من قوات الأمن الأمر الذي يهدد قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان في المناطق المحتلة".

حرية التعبير وحق الجمهور في المعرفة هما من أسس النظام الديمقراطي، ولكن "يمكننا القول إن خيانة الإعلام وغياب نقديته تجاه السلطة، أتاحا ارتكاب أعمال قتل وخر وقات خطيرة لحقوق الإنسان" هذه الصورة المتناقضة، ما بين الادعاء بديموقراطية إسرائيل وبين كونها دولة محتلة، يدفعها طيلة الوقت أن تجعل من إعلامها تعبواً بامتياز، فهي في صراع خارجي مستمر مع الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، إضافة إلى توتر داخلي بين الفلسطينيين العرب والإسرائيليين داخلها. إن هذا الواقع يدفع الإعلام الإسرائيلي - وخاصة المكتوب - إلى أن ينتهج نوعين أساسيين من التغطية الإخبارية أثناء فترات الصراع وهما:

النوع الأول: تغطية التشريع وهي تغطية تتسم بنشر الأخبار التي تعطي شرعية ومكانة وسيطرة للمجموعة المهيمنة، إضافة إلى الأيدولوجي والخطاب والتوجهات والسياسات التي تدعمها.

النوع الثاني: تغطية التجريم وهي تغطية تتسم بنشر الأخبار التي تجرم الممارسات والمواقف التي تتخذها المجموعة غير المهيمنة، وبالذات المجموعات المحرومة، الغربية، والمعادية، خاصة في الأوضاع التي تتميز بالتوتر السياسي أو الصراع. إن تقارير وأخبار التجريم تؤكد على التهديد للنظام الاجتماعي والإجراءات التي اتخذتها الحكومة مسؤولي القطاع العام والإجراءات التي اتخذتها الحكومة لاحقاً بهدف استعادة النظام.

إن النوعين السابقين للتغطية الإخبارية - كما مارسته وسائل الإعلام الإسرائيلي خلال انتفاضة الأقصى بالذات - جعل من هذه الوسائل تقوم "بتعبئة الرأي العام وليس تصحيحه" هذه التعبئة - المؤسسة على فكرة التجريم - اتخذت منحى التحقير أيضاً وتميزت بما يلي:

أولاً: النظرة الاستعلانية إلى الآخر وهي نظرة تتضمن الحديث عن صراع حضارات؛ حضارة نيرة ومتقدمة في مواجهة حضارات متخلفة همجية يعمل الطرف الآخر وفقاً لقيمها وضوابطها نظراً الاستعلاء الحضاري هذه تتضمن - بين أمور أخرى - الاختزال والتعميم والتحقير.

ثانياً: تبني مواقف الحكومة وعدم الميل إلى انتقادها، وهو نهج سائد في الصحافة الإسرائيلية في حالات الصراع والتوتر، ولكنه لا ينطبق في سلوك تلك الصحافة في تغطيتها لسياسات الحكومة في القضايا الداخلية، إذ تتحول الصحافة عندئذ إلى منبر انتقادي جارح. وبالنسبة للتغطية الاخبارية لأحداث انتفاضة الأقصى، فإن بعض الباحثين يعتقدون أن تلك الوسائل خلت من "الميل النقدي التحليلي الواضح الذي يشيد بانجازاتها أو يؤكد على تقصيرها"⁽⁷⁾، فيما رأى البعض الآخر أن تلك الصحافة "قبلت دون أي تشكيك مقولات الجيش الإسرائيلي.. وقبلت الصحافة كل ذلك دون أي استئناف معتبرة إياه انضباطاً من الحكومة"⁽⁸⁾.

ثالثاً: التهويل وعدم تحري الدقة والميل للتفريط، وفي هذا المجال فقد أشرت في الفصل السابق إلى تفاصيل ذلك، ولهذا أخلص إلى القول إن الصحافة الإسرائيلية -المكتوبة خاصة- ركزت أو جعلت من شعار "العرب لا يفهمون غير القوة" أساساً للتغطية الإخبارية، وبهذا فقد ظهرت نزعة يمينية متطرفة وجدت مساحات كبيرة لها في الصحف، فهذه صحيفة معاريف -خلال انتفاضة الأقصى- تخصص زاوية بعنوان "آراء" يكتب فيها صحفيون يمينون أمثال أوري دان (وهو الصحفي المقرب من أريئيل شارون) وكذلك ندف هعتسني، أما صحيفة ידיעות أحرונوت فقد دأبت على نشر مقالات أوري أورباخ وإيمونة ألون اليمينيين والمقربين من أوساط المستوطنين. صحيفة هآرتس وحدها هي التي استحدثت زاوية بعنوان "صحافة في المواجهة" نشرت فيها مقتطفات من الصحف الفلسطينية، هذا بالإضافة إلى نشرها تقارير ومقالات لكل من داني روبنشتان وأوري نير ويوسف الغازي وعميرة هاس وجدعون ليفي، الذين عرضوا في مقالاتهم آراء ومواقف الشعب الفلسطيني وقادته.

التهويل وعدم تحري الدقة والميل للتفريط مظاهر نجدها في الصحافة الإسرائيلية عندما يتعلق الأمر بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي. وهي مظاهر لتلك العلاقة الوطيدة بين السياسة والإعلام، حيث تصف الباحثة تمار لبيس الصحافة الإسرائيلية بأنها "محكومة بالهيمنة الصهيونية وهي تملئ التغطية الإعلامية للصراع الإسرائيلي العربي"^{فيما} يؤكد الباحثان روعيه ونير أن التغطية الصحافية الإسرائيلية للانتفاضة ميزت بين شخصيتين جمعيتين: الإسرائيلي (الحن) والفلسطيني (هم) ^{أما} الباحثة الإسرائيلية آسيا فتذكر أن المؤسسة السياسية الإسرائيلية التي تعتمد سياسة "العصا والجزرة" تستخدم الإعلام وسيلة لتعليم الأقلية الفلسطينية كيف تتصرف ^{لن} كل ذلك يؤدي بالضرورة إلى أن يتحول الخطاب الإعلامي في علاقته بالفلسطينيين إلى إعلام محمّل برسائل عديدة، تصب جميعاً في مصلحة السياسات

(7) المصدر السابق، ص (123).

(8) سلمان ناظر "الإعلام الإسرائيلي والانتفاضة"، مصدر سابق، ص (56).

الإسرائيلية الاستراتيجية منها والتكتيكية، من جهة أخرى، فإن هناك من الباحثين من يعتقد أن خصخصة وسائل الإعلام الإسرائيلية، حررت هذا الإعلام من توجيه النظام والسلطة، وأن ما يهم هذا الإعلام هو عملية الربح والرواج ولكن هذا الرأي بالذات يعزز عملية انصياح وسائل الإعلام الإسرائيلية لما ترغب به المؤسسة السياسية والعسكرية لما بين الدوائر الثلاث من مصالح وعلائق تمت الإشارة إليها في الفصول السابقة.

العلاقة بين وسائل الاعلام في إسرائيل وبين النظام علاقة يمكن اثباتها نظرياً وعملياً في جميع الظروف والحالات، بصرف النظر عن طبيعة النظام والمرحلة التاريخية، وتتعرز هذه العلاقة عندما تتطلع بعض وسائل الاعلام "لأن تكون ذراعاً لتطبيق سياسة النظام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية"⁽¹³⁾. العلاقة المتينة هذه حاولت تعميم صورة نمطية للعربي بشكل يخدم سياسة المؤسسة الإسرائيلية⁽¹⁴⁾.

وإثباتاً لهذا الكلام نشير إلى أن وسائل الاعلام الإسرائيلية غيرت من تعاملها مع العرب الفلسطينيين بشكل ملحوظ بعد اتفاق أوسلو⁽¹⁵⁾، ولكن هذا التعامل تغير تماماً خلال انتفاضة الأقصى، وبدأت تغطيات سحب الشرعية وتغطيات التجريم المشار إليها آنفاً، وكانت هناك ثلاثة مستويات لهذين النوعين من التغطية⁽¹⁶⁾:

أولاً: توجيه سياسي مباشر ظهر فيها المرسلون والوسائل الإعلامية المختلفة وكأنهم ناطقون باسم جيش الاحتلال. (مقالات جدعون ليفي أشارت إلى هذه الحقيقة بوضوح شديد).

ثانياً: طريقة عمل المرسلين الذين يكتبون تقاريرهم وهم في مكاتبهم ولا يخرجون إلى الميدان يميلون عادة -بسبب الكسل والكذب والركون إلى الصورة النمطية للعربي- إلى فبركة الأخبار وتوليفها بما يتلاءم مع مزاج الجمهور (وقد أثبتنا في الفصول السابقة كذب واختلاق بعض عينيات من الأخبار المنشورة).

(13) د. ريناوي، المصدر السابق، ص (98).

(14) هذا الرأي ينسحب ليس فقط على الاعلام وإنما ينطبق أيضاً على الأدب، ينظر في "صورة العربي في الأدب الإسرائيلي" للباحث وليد أبو بكر، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 1996.

(15) د. ريناوي، قضايا إسرائيلية، مصدر سابق ص (98).

(16) د. ريناوي، قضايا إسرائيلية، مصدر سابق، ص (98).

ثالثاً: التجند الطوعي للمراسلين وكتاب الأعمدة والانحياز لصورة نمطية للعرب الفلسطيني، وهؤلاء لا يتقنون تعليمات عليا ولكنهم وبسبب من "انتماءاتهم الوطنية" فهم يمارسون عمليات سحب الشرعية والتجريم عن الفلسطيني.

وفي تبرير ما لسلوك وسائل الاعلام الإسرائيلية لتلك السياسات. يقول البروفيسور تمار ليبس أنه في حالة الحرب لا يمكن أن نطالب وسائل الاعلام بأكثر مما تقدر عليه بسبب الصراع الذي يعانیه الاعلامي في ذاته، بين مشاعره الوطنية ومتطلبات المهنة الصحافية، كما يرى هذا الباحث أيضاً أن هناك تغييرات حقيقية طرأت على علاقة النظام السياسي بوسائل الاعلام الإسرائيلية، فالسيطرة أقل والانفتاح على "الأخر" أكبر، وذلك بسبب ما سماه "التطور في البنية الإعلامية والبيئة الإعلامية العالمية"⁽¹⁷⁾، ولكن الدكتور عناة فيرست تؤكد -رغم ذلك- أن "الهيمنة السلطوية على وسائل الاعلام ما زالت قائمة والتعامل مع "الأخر" هو تعامل كولونيالي"⁽¹⁸⁾.

بعد هذا كله، وبناءً على ما تم التعرف إليه خلال البحث، يمكن اجمال الاستنتاجات بما يلي:

أولاً: أنه على الرغم من المرجعيات والأهداف العليا للصحافة الإسرائيلية، إلا أن هذه الصحافة تشهد تطورات وتغيرات بنيوية على مستويات عديدة تتمثل في الجمهور المستهدف والمضمون والشكل والملكية.

ثانياً: إن وسائل الإعلام الإسرائيلية التي من المفروض أن تعكس الثقافة السياسية الديمقراطية في إسرائيل تواجه انتكاسات حقيقية وفشلاً ملموساً عندما تتعرض "للعربي الفلسطيني" وللصراع الذي يتواصل منذ قرن تقريباً.

ثالثاً: تميل وسائل الاعلام الإسرائيلية إلى تهميط العربي الفلسطيني وتثبيت صورة محددة تساعد المؤسسة السياسية في ممارسة سياساتها الاحتلالية والقمعية.

رابعاً: الاعلام الإسرائيلي مجند لخدمة الأهداف الصهيونية من جهة وللمؤسسة الحاكمة من جهة أخرى رغم كل ما شهدته هذه السوائل من تغييرات على مستوى الملكية والانفتاح على السوق، فالنخبة المهيمنة لم تتغير عملياً رغم اختلاف الظروف والشروط.

(17) ليبس "وقائع يوم دراسي" مصدر سابق، ص (99).

(18) د. عناة فيرست، المصدر السابق، ص (100).

خامساً: هناك تعددية كبيرة في وسائل الاعلام الإسرائيلية ولكن -وبذات الوقت- هناك تجانس على مستوى المضامين الإعلامية من حيث التركيز على الترفيه والاتفاق على تهميط العربي الفلسطيني.

سادساً: هذه التعددية البنوية في وسائل الاعلام الإسرائيلي منحت احساساً بالطمأنينة والحياة الطبيعية للإسرائيلي، ولكنها في الوقت ذاته جندت هذه الوسائل نفسها لتوفير المسوغات والمبررات لاجراءات النخبة السياسية والعسكرية المهيمنة.

سابعاً: أما فيما يتعلق بعمل وسائل الاعلام الإسرائيلية خلال ما يسمى بعملية السور الواقى، فقد عكست الوعي الجماعي والحالة الأيدلوجية والنفسية للمجتمع الإسرائيلي بشكل عام، وقد تميزت تغطية هذه الوسائل -وخاصة الصحف- بأنها عكست وعياً إسرائيلياً "يائساً، متخوفاً، مضطرباً، ناقماً، ساخراً" حسب ما ذكره الباحث الإسرائيلي دنئيل دور في كتابه "من وراء الجدار الواقى" ص 11.

ثامناً: كانت التغطية الصحفية لعملية السور الواقى متشابهة إلى حد كبير في تجريم الفلسطيني وسحب الشرعية عن وجوده ونضاله وقضاياه، ولكن هذه التغطية أيضاً وفي استثناءات ليست قليلة حاولت أن تكون ناقدة -وخاصة صحيفة هآرتس وحفنة قليلة من كتابها- وعلى الرغم من هذه الحقيقة إلا أن الأمر أصعب بكثير مما يبدو، "فوسائل الاعلام الإسرائيلية تختلف عن بعضها البعض في ما تظهره إلى الجمهور، ولكن كل واحدة من هذه الوسائل تموقع نفسها بشكل مختلف في إطار الاجماع الإسرائيلي" بلغة الباحث دور مرة أخرى.

تاسعاً: على المستوى الفني لتغطية الصحف الإسرائيلية لعملية السور الواقى، فقد تميزت هذه التغطية بتبني وجهة نظر حيث الاحتلال والتجند شبه الكامل للرواية الرسمية للمؤسسة السياسية والعسكرية، والكذب والفبركة وتجاوز شروط المهنة الصحفية في عرض الأحداث وسردها وكيفيات تحريرها، إلى درجة أن يكون عنوان الخبر غير ذي علاقة بمحتوياته.

عاشراً: وعليه، فإن ما يبدو تنوعاً في الخطاب الإعلامي الإسرائيلي -خلال فترة البحث- لم يكن تنوعاً في المضامين أو المواقف المبدئية، وإنما هو وتنوع في التفاصيل.

أحد عشر: وهكذا، فقد عكست الصحف العبرية عملية السور الواقى بأنها ضرورية وأنها فرضت على الجيش الإسرائيلي بسبب الأعمال الإرهابية، وأن جيش الاحتلال هو جيش أخلاقي، وأن الفلسطينيين أخطأوا باستعمال السلاح ولولا ذلك لحصلوا على دولة، وأن الشعب الفلسطيني بأكمله هو شعب يعيش في دفيئات مناسبة لتفريخ الإرهاب والإرهابيين.

ثاني عشر: تجب الإشارة أيضاً إلى أن لغة الخطاب الإعلامي الإسرائيلي خلال فترة البحث بالذات هي جزء من لغة المستعمر الاستعمارية الاستشراقية التي تهدف إلى الاحتواء والهيمنة وليس إلى الفهم والتعاون.

المراجع والمصادر

(مرتبة هجائياً)

- أنعامي، صالح: "العسكر والصحافة في إسرائيل" (القاهرة، دار الشروق، 2005).
- أبو بكر، وليد: "صورة العربي في الأدب الإسرائيلي" (عمان، دار الكرمل، 1996)
- البدانية، ذياب. "الأمن وحرب المعلومات"، (عمان، دار الشروق، عمان، 1996)
- بشير، نبيه: "عودة الى التاريخ المقدس: ال حريدية والصهيونية"، (دمشق، دار قدمس للنشر والتوزيع، 2005)
- برير، الأب مايكل: "الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني"، ترجمة زياد متى (دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، ط3، 2004)
- بورينسكي، د. أ: "الصحافة التلفزيونية"، ترجمة د. أديب خضور، (دمشق، المكتبة الاعلامية، 1990)
- بيبي، توماس: "الصحافة اليوم" ، ترجمة روان الجابري (بيروت، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، 1985)
- تودوروف، تزفيتان: "فتح أمريكا، مسألة الآخر"، ترجمة بشير السباعي، (القاهرة، سينا للنشر، 1992).
- جريس، صبري: "تاريخ الصهيونية " الجزء الأول (القدس، 1978)
- امل جمال: "الصحافة والإعلام في إسرائيل"، (رام الله، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2005)
- د. حيدر، عزيز: "التطورات الاقتصادية والحراك السياسي في إسرائيل" (رام الله، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2005)
- دور، دانئيل: "صحافة تحت التأثير" (تل أبيب، بابل، 2001) (بالعبرية)
- دور، دانئيل: "من وراء الجدار الواقى" (تل أبيب، بابل، 2001) (بالعبرية)
- روعيه، اسحق: "سبعة مستهلات للتمعن في الاعلام والصحافة" (بن يهودا، ريخس، 1994) (بالعبرية)
- يحيئيل ليمورورافي مان: "جمع معلومات"، (تل أبيب، الجامعة المفتوحة، 1997) (بالعبرية)

- د. عتسيوني - هليفي، حافا: "صلة النخبة والديموقراطية في إسرائيل" (تل أبيب، سفريات بوعاليم، 1993) (بالعبرية)
- سميث، جيوفري نويل// وكينتين هور//: "غرامشي: دفاتر السجن" (دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، 1991).
- شلايم، آفي: "الحائط الحديدي"، ترجمة ناصر عفيفي (القاهرة، مؤسسة روز اليوسف، 1999)
- شلحت، أنطوان: "ثقب في الثقافة الأخرية"، (عكا: مؤسسة الأسوار، 1998)
- شيلغ، يائير: "المتدينون الجدد" (رام الله، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2002).
- غنايم، محمد حمزة: "وجهاً لوجه، سجلات مع متقنين يهود" (رام الله، مدار، 2001)
- فانون، فرانتز: "معذبو الأرض"، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي (بيروت، دار القلم، 1972)
- فريري، باولو: "نظرات في تربية المعذبين في الأرض"، ترجمة مازن الحسيني (رام الله، دار التنوير للنشر والترجمة والتوزيع بالتعاون مع المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية، 2003)
- فنكلستين، نورمان: "صناعة الهولوكست" ترجمة سماح ادريس (بيروت، دار الآداب، 2001)
- كاسبي، ليمور: "وسائل الإعلام الجماهيرية في إسرائيل" (تل أبيب، الجامعة المفتوحة، 1998). (بالعبرية)
- كنعان، حبيب: "حرب الصحافة" (القدس، المكتبة الصهيونية. من دون تاريخ)
- كاسبي، دان: "إعلام وسياسة"، (تل أبيب، الجامعة المفتوحة، 1997) (بالعبرية)
- د. مسار، لحمان: "خارطة الاعلام الجديدة- الهيكلية والملكية، التحديات والمخاطر" (القدس/ معهد الاتصالات، الجامعة العبرية، 1992) (بالعبرية)
- د. المسيري، عبد الوهاب: "الادراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح" (بيروت، دار الحمراء، 2002)
- د. المسيري، عبد الوهاب: "اليد الخفية" (بيروت، دار الشروق، 1998)
- مناع، جودت: "الاحتلال الاسرائيلي: الدعاية والاقناع الإسرائيلي خلال عميلة حائط الفصل العنصري" (رام الله، منشورات بالميديا انستيتيوت، 2004)
- ناصر، درويش: "الفاشية الإسرائيلية" (عمان، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 1999)

- د. نوفل، أحمد: "الحرب النفسية- الكتاب الثالث" ، (عمان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 1986)
- هليفي، شوشانا: "تطور الصحافة العبرية في أرض إسرائيل" (القدس، كيشر، 1989)
- هنغبي، موشيه: "حرية الصحافة في إسرائيل" (القدس، مركز القدس لدراسات إسرائيل، 1995)
- هاتلنج، جون ل: "أخلاقيات الصحافة" ترجمة كمال عبد الرؤوف (القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، 1993).
- هنغبي، موشيه: "حرية الصحافة في إسرائيل" (القدس، مركز القدس لدراسات إسرائيل، 1995) (بالعبرية)
- هيكل، محمد حسنين: "الجيش والعروش" (القاهرة، دار الشروق، 1999)
- يهوشوع، أ. ب: "العاشق" ترجمة محمد حمزة غنايم (كفر قرع، دار الهدى، 1985)
- Gramsci, Antonio: Selected writing, 1916-1935, Edited by David Forgasc (New York: New York University Press, 2000)
- Greg Philo and Mike Berry, "Bad news from Israel" Ghsgow University, Pluto Press, 2005.

صحف عبرية:

صحيفة معاريف.

صحيفة هآرتس.

صحيفة يديعوت أحرونوت.

صحيفة هتسوفيه

صحيفة كول هعير

صحيفة جيروزالم بوست (بالانكليزية)

صحف فلسطينية:

جريدة القدس.

جريدة الأيام.

مجلات:

- فصلية "قضايا إسرائيلية"، تصدر عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية "مدار"، رام الله.
- مجلة الدراسات الاعلامية، تصدر عن المركز العربي الاقليمي للدراسات الاعلامية للسكان والتنمية والبيئة، القاهرة.
- مجلة دراسات شرق أوسطية، فصلية محكمة، إصدار مركز دراسات الشرق الأوسط بالتعاون مع المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، عمان.
- مجلة وجهة نظر، القاهرة، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي.
- مجلة الكرمل، رئيس التحرير محمود درويش رام الله.
- مجلة كيشر، تل أبيب (بالعبرية).

تقارير:

- دليل إسرائيل العام، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت 2004.
- التقرير الاستراتيجي، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، مدار، 2005.

مواقع الكترونية:

www.Wujs.org, see also www.onfo.jpost.com
www.israel-mfa.gov.il
www.israelmarketin.com
www.Israelnewsagency.com
www.israel-maf.gov.il, see also www.us-israel.org
www.us-israel.org
www.israel-mfa.gov.il
www.pmo.gov.il
www.quivis.com
www.quivis.com
www.us-israel.org
www.quivis.com
www.quivis.com
www.israel-mfa.gov.il

www.israel.org
www.israel.org
www.israel.org
www.izaia.org
www.aish.com
www.sptimes.com
www.israel-mfa.gov.il
www.israel-mfa.gov.il
www.israel-mfa.gov.il
www.israel.org
www.us-israel.org
www.aish.com
www.aish.com
www.israelmarketing.com
www.zmag.org

الفهرس

مقدمة

الفصل الأول: التاريخ والأسس

١. مراحل النشاط الصحفي

- أولاً: في روسيا وشرق أوروبا (القرن التاسع عشر)
- ثانياً: تحت الحكم العثماني (الحرب العالمية الأولى)
- ثالثاً: تحت الانتداب البريطاني (حتى قيام الدولة)
- رابعاً: بعد قيام الدولة.

١. الصحف التجارية.

٢. الصحف الدينية.

٣. الصحف الروسية.

٤. الصحف العبرية.

٢. أسس ومنطلقات الخطاب الصحفي الصهيوني.

الفصل الثاني:

- سلطة الإعلام الإسرائيلي.
- العوامل الاقتصادية وتأثيرها على الخطاب الإعلامي
- واقع جديد
- آليات الإعلام الإسرائيلي زمن الحرب
- مصادر القوة والضعف
- خلاصة

الفصل الثالث:

- مضامين الخطاب الاعلامي الصهيوني
- هيمنة الدولة على الإعلام
- مستويات مختلفة من اللغة
- المستوى الأول

المستوى الثاني

المستوى الثالث

- السرد

- العناوين

- المصطلحات

- المحذوف من النص

- التتميط اللغوي

• الخطاب الإعلامي الإسرائيلي وتجلياته على المستوى الثالث (البحث عن علاقة مغايرة)

خلاصة البحث

المراجع والمصادر